
أيام هند



أيـام هنـد

سيد الوكيل

لوحة الغـلاف للفنان / خوان ميرو

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٢٤٩٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-291-055-1



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

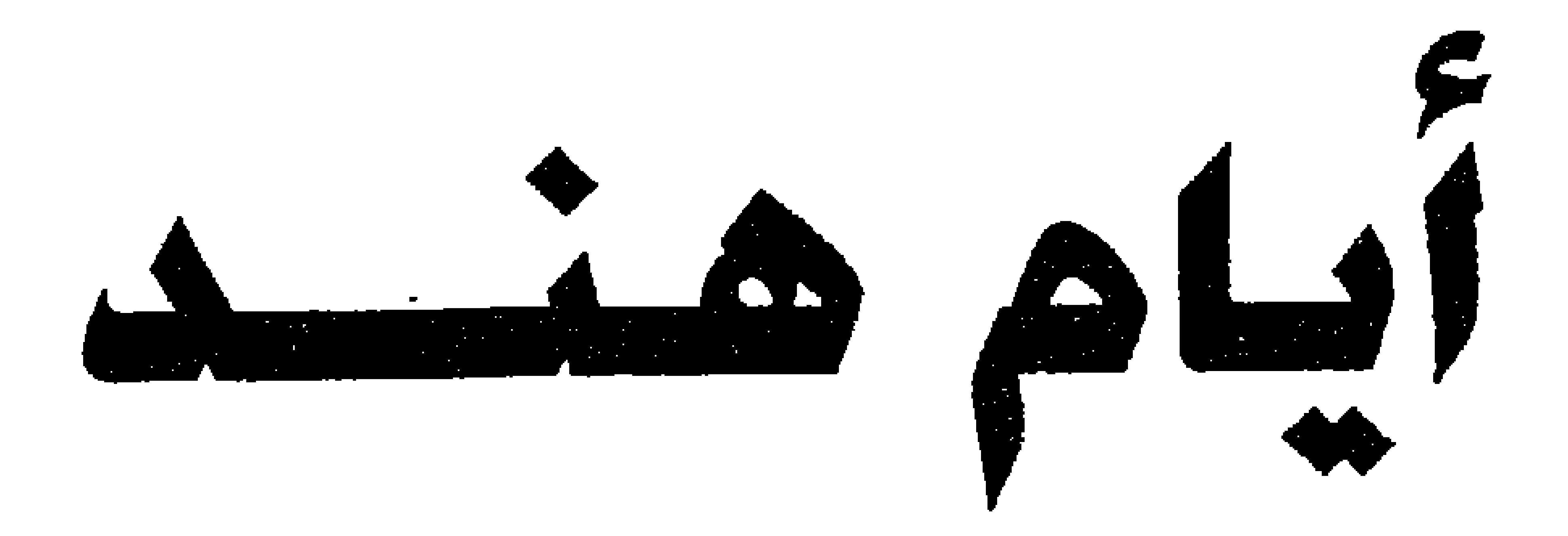
تنفيذ :صفاء الشريف

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

سيد الوكيل



مجموعة قصصية



وجــــوه

حنجـــل ..

فى غير رمـضان ، كان يدق إيقاعـاته الرتيبة فيـسأله الناس عن الميت .. وكـان ينطق الاسم ببسـاطة ولا يتـوقف عن الدق ، ويسـألونه عن السبب فيفكر ويقول .. أمر ربنـا ، وكانوا يتلقون الإجابـة ، يقنعون بهـا ويمضون، يمصـمصـون شفـاهم البـيضـاء بذعـر ، ويمضى هو ، يدق .. يدق .. يدق ، وتجرى أقدامنا الحافـية الصغيرة وراء الدقدقات المكتومة ، نهرش رؤوسنا ، ونبصق فى عبنا ، ونضـحك فى سرنا على طبلته العتيقة الـتى يضيع صوتها فى زعيقنا خلفه من زقاق لزقاق .

يا حنجل يا وش القملة

مين قالك تعمل دى العملة

ما عاد رمح الصغـار وراء حنجل يثير غضب الكبار ، صـار مألوفاً حتى لم يسمعه أحد .. وفى موسم حـصاد عامنا الأول تذكره الناس ، حين أقسم مأمون ألا يعـطيه كيلة الذرة إياها ، وقال على الملأ .. إن جـرن حنجل صار أكبـر من جرنـى .. وما تجـرأ حنجل أن يقـول أن مأمون الـذى اشتـغل فى الميـرى لم يعـد له جـرن من أصـله .. لكن النسـاء لم يتوقـفـن لحظة عن منحه حـفـنة القراقـيـش ونـورة الكـعك صبـيحـة يوم العـيـد حين يطالعن وجـهـه الصـامت فى الصـبـاح البكـر يرش بين القـبـور ويـروى الصـبـار

والنخلات القصار .

وها هو مأمون أيضاً الذى اشترى منبهاً يرن مثل جرس كنيسة النصارى وقال ولا الحاجة لطبلة حنجل اليوم .

فاستعار حنجل سير الكاوتش من الأسطى رضوان ، وشد الرق على البوق الفخارى ، فصار الصوت جديداً ومفزعاً للنائمين والصاحين الذين ما عادوا يردون من خلف نوافذهم المغلقة «رمضان كريم يا حنجل» ، ولا عادوا يسألونه عن الميت ، لأن الشيخ جابر أبو خليفة يسبقه فى ميكروفون الزاوية الجديدة .

لكنهم ظلوا يلقون وجهه المدبوغ فيحوقلون ويستعيذون بالثلاث آيات البينات التى تطرد الشؤم وتقطع دابر الشياطين .

ولم يعترفوا قط بمهارته فى الغسل والتكفين .. ولا سألوه يوماً عن سر تركيبة العطر الذى يضمخ به الميت ، وبقى حاملاً عمره الكئيب المزمن فوق ظهره المحنى كأنف يهودى وهو ينزل به إلى ظلام القبور ، يستقبل رأس الميت ناحية القبلة ، ويسندها بشقفتين ، واحدة عن يمين وأخرى عن يسار ليبقى شاخصاً لوجه ربه ، ويقرئ ملك الموت السلام كما هو واجب ، لكن الملك المهيب الطلعة المشرق الوجه كطاقة القدر كان يبكى ، فعرف حنجل أن للملك قلب بنت صغيرة محبة ، وفهم الذى فى عينى ملك الموت الحنون فاستبد به حزن داكن صموت كعينيه ، واعتكف فى حجرته ينتظر زائره ، وعاف الطعام والشراب ، حتى اشتم الناس الرائحة العفنة ، ووجدوا كفنه الحريرى الناصع بجواره ، وسبع زجاجات من العطر لم تفلح فى طرد العفن الذى شعشع فى الجو ثلاثة أيام وليلة ، حتى جاءوا بلحاد بنى عمر فقبروه فى عشية يوم قائظ هاجت فيه الصراصير والضفادع.

منسى ..

لا أحد يعرف من يطعمه ، فلم نره ينزل من عليائه ليأكل مما يأكل منه أهل الأرض ، ولا كان معروف النسب والتاريخ ، كأنه نبت بقدرة قادر فى الجميزة التى تتلوى وتتشابك فى السماء ، وتبسط عمرها المجهول فوق مقام الشيخ رمضان ، وكنا ونحن صغار نناديه بالاسم الذى اخترعناه فنقول ... ارم يا منسى ... فيرمى الثمرات ويهلل بصوته المخنث الممطوط فيثير ضحكنا ، ويثير اشمئزازنا جسمه المجدور ، والشقوق العميقة فيه ، الغامقة ضفافها بسواد لزج بينما تلوح فى عمق اللحم بحمار دام ، كأنه ثمرة فى الجميزة تعفنت وتاقت للسقوط .

ولما كان آخر أتوبيس مقار أمام سينما النزهة ، كنا نقطع الطريق المترب الملتوى بين مدى المستنقعات والحلفا التى يغوص فيها قطار بحرى فلا نرى إلا دخانه الأسود الغطيس ، ونرى الجميزة من أول الطريق ، فلا نرفع عيوننا عنها حتى نصير تحتها ، ونرى «منسى» فوقها بوجهه الملطخ بشعر ملبد بعرق قديم ، ونسمع صوته المخنث هذا يحادث أطيافاً لا يراها غيره فنقول إنه يكلم الطير بلسانها .

وأمى تؤمن بصلة قربى بينه وبين الشيخ رمضان لكن الأسطى ونيس يقسم بالمسيح الحى .. وهو يحك نعلاً مبلولاً بشفره زجاج مشطوفة - إنه رأى بعينيه اللتين سيأكلهما الدود هاتين ، منسى وهو يحلق فى الفجر بين كوكبة من الطير ، وحين سأله ... إلى أين يا منسى ؟ قال ... القدس .

ويومها ضحك عبده المكوجى ، وزر عينيه المتنفختين وقال بصوته المتلهوج (كفاك شرب منقوع الصرم يا ابن ماريكا القرعة) .

ودائماً تأتى صباحات الربيع بكل أنواع الطير ، وتتألق الجميزة بصداح خلاق لفرح كونى صغير ، وتزدان بقناديل خضر مختلفة أحجامها، فينشط «منسى» لختانها فتتفتح شفراتها وتتورد بتمام استدارة كنهود البنات .

وواحد من تلك الصباحات ، ذلك الذى طقطق فيه الفرع الكبير المثقل نذا ، فتهادى على تراب الطريق ، ومس ضلعاً من المقام فتهاوت حجارته فوق رأس الشيخ ، فقال عم أمين الصول ... الجميزة تخوخت وتآكلت من داخلها .

وبعدما استبدلت الحكومة أتوبيس مقار القديم بأتوبيس نصر ، جاء إلى الشجرة سيارات كاميون كبيرة ، ومناشير وبلدوزر ، وآلات تلمع تحت الشمس لا نعرف لها أسماء ، ولكنا عرفنا بامتداد خط الأتوبيس ليدور حول المقام ، وفرحنا بالدبش الأبيض الذى فردوه فى الطريق فدارى التراب، ووقفنا فى صباح يوم لا أنساه نشهد المهندس الشاب وهو يعطى الأمر ، فيتسلق ثلاثة من عماله الجميزة كقرود كبيرة بين صرخات منسى الممطوطة وقفزاته العشوائية فكبلوه بسلبة كبيرة وانزلوه عنوة ، فرأيناه لأول

مرة على الأرض ، كان غير قادر على الوقوف ، وكان يزوم كحيوان مريض يدور بعينيه الصغيرتين جداً على الوجوه بذعر ، وثمة خرقة فى لون الطين تستر عورته .

وطوال النهار هذا ظلت البلط تنغرز والمناشير تحز فى لحم الجميزة فتتساقط أطرافها ، وتتقافز طيورها فى دوامات مفزعة حول المكان ، وفى المساء ، رأينا منسى يزحف على ركبتيه ، ويجمع الأعشاش التى تناثرت وتفجر بيضها على الدبش الأبيض ، لكننا فى الصباح لم نعثر له على أثر .

فواز مطاوع

هالنى هيكله المهول يوم تحدى الرقيب بركات ، ورفع برميل الماء فوق رأسه كجرة صغيرة ... مدهشة قوته تلك ، التى كانت سبباً فى شهرته بين أفراد الكتيبة ... لأن فواز اعتاد بدافع من شهامته أن يجر المدافع التى نعجز عن زحزحتها فى الرمل الناعم أثناء التدريب ... كان عرقه ينضح تحت الشمس المختالة بسطوتها ، ويبتسم مختالاً بتشجيعنا المشوب بمرح كسير .

وبعد طابور المساء نراه منهمكاً فى مطاردة الكلاب التى تتسلل من تحت الأسلاك الشائكة ، فنشير له إلى الواحد منهم ونحن مستلقون أمام الملاجئ نضحك ... وهو ... يطاردهم كفهد أسمر رشيق ... ويعود يلهث ، ويلمع سماره الداكن المندى بعنف المطاردة ... ويطوح بعصا غليظة حفر فيها اسمه ... فواز مطاوع .

ويحب الرقيب بركات أن يسمع الحكاية ، مرات ومرات ، فيقول ..

- إيه حكاية الكلب اللى سرق فرخة أمك يا فواز .. ؟ يضحك فواز ... كل مرة يضحك ... ويحكى ... كيف انتظر حتى ينام كل أفراد الملجأ لينفرد بالفرخة وحده ... لكن ... سلطان النوم غلبه لحظة طارت فيها الفرخة .

ويضحك بركات حتى يحمر وجهه وتدمع عيناه ... كل مرة يضحك حتى يحمر وجهه وتدمع عيناه ... ويقول له فواز بجرأة يحبها حتى الرائد نصر الريدى :

- أضحكك فى المساء وتكدرنى فى الصباح ... منوفى صح . ويغض بركات الطرف عنه طمعاً فى باقى الحكاية ... ويقول ..

- وجريت وراه لغاية كتيبة الصواريخ ؟

- والله لو كان عير ... كان بينى وبينه فركة كعب ... ولكن الكنجى طلع لى من تحت الأرض ... أثبت مكانك ... قلت له يا بلد الكلب فر بالفروج ... فقال ... أثبت مكانك لأضرب فى المليان ... ووقفت أبص للكلب وهو يغطس فى الظلام ... كأنه واكل من حشايا ..

ولولا لهجته تلك لمات فواز فى ليلة الفروج هذه .. لأن كنجى الصواريخ قال له بعدها ..

- أنا قلت فى عقل بالى ... اليهود ممكن يتكلموا عربى ... لكن صعيدى ... لا .

وبعد وقف إطلاق النار ، زارنى الرقيب بركات فى المستشفى ، وأخبرنى أن فواز وقع فى أيديهم ، ويومها بكى بركات كبنت صغيرة ، وأخرستنى الدهشة لما قارنت بين صوته فى أرض الطابور ، وصوته وهو ينهنه بجوارى على حرف السرير الذى كان يهتز من وطأة بدنه الجرم ، وأحسست أن بركات تذكر أيام أسره فى ٦٧ التى طالما تاه بها فخراً بين أفراد الكتيبة .

وحين قـرأت اسم فواز فى قـائمة الصليب الأحـمر ، وعـرفت انه رجع لمصر ، أرسلـت له على عنوانه ... أسيـوط ... مركز البـدارى ... ولـم يأتنى رد على أى رسالة ، ولـم أعد أسمع عنه حـتى أمس ، قرأت اسمه فى نفـس الجريـدة التى نشـرت قائمـة الصليـب الأحمـر ، وتأمـلـت الصورة ... هو هو ... لولا اللحيـة والشعر الهائـش ، والدماء التى نقرشت وجهـه وصدر جلبابه الأبيـض .... وفى الصورة كان أحـد جنود الشرطة المسلحين واقـفاً بجوار الجـثة ، ومع أن عينيه كـانتا مفـتوحتين على آخرهـما ، لكنهما كـانتا خاليـتين من هذا البريق الذى كنا نراه كلمـا رجع يطوح عصـاه بعد مطاردة لكلب تسلل من تحت الأسلاك .

دانيـــال ..

كـان الواحد منا لا يـكاد يبين من الأرض ، وكان هو يمشى بيننا طويلاً كذيك شـركسى برقـبته الممـدوة للأمام وعينيـه الجاحظتين ... وأنف يشـبه منقـار ببغـاء، وفى حصـة الألعـاب نتسـابـق فى ضـمه لفـريـق السلـة ، نرجـوه ... العب مـعانـا يا خواجـة ... وإذا غـضـبنا عليه قلنا ... طيب يا شركسى الكلب .

ولا أحـد منا يقول ... يـا دنيال ، ولا يغـضـبه مـا نقـول ، فيـرمح على مساحة الرمل المستطيلـة كفصيـل ، ولا نـكسـب فريق الشياطين الحمـر من غيره .

انقطع نسـيج الذكريات لما نهنهت تـريزة بجوارى ، كـان صوتها غـائراً وضعيفاً ، والحروف مفتتة بين النهنهات : « .. أخويا .. وراجلى .. وابنى .. ماليـش حد غيـره» دست منديلها فى الحـقيـبة المتـفخة ، ثم عـدلت وضع ترمس الشاى ... أتأخرنا .

منقاداً للتـداعيات كنت أمـشى بجوارها .. تداعيـات للبعيد .. أكـثر .. حين كنا نراه فى البالـكونة ، يحشر رأسـه الدقيق بين الأسيـاخ الحديديـة ، ويتابع لعبنا وتصايحنا وتعاركنا ، .. ينفـعل ويتجاوب فى صمت ... يبتسم

إذا وقع أحدنا ، أو أحرز هدفاً في فريق الشارع الآخر .. ورويداً رويداً ، يجيب الواحد منا إذا سأله .. جون ولا لأ يا كابتن . ورويداً رويداً صار يقاسمنا كل شئ .

قلت ... في المستشفى من أمتى ؟

قالت ... رجع من كندا تعبان ... وتعب أكثر بعد موت ماما ... الله يقدس روحها .

- كندا .. ؟ ايه حكاية كندا دى ؟

موت عوض أفندى كان مفاجئاً لنا ، مات على السلم - حاملاً دراجته الرالي فوق كتفه - قبيل درجات من باب الشقة ، ولما ساءت أحوال الأسرة ، رأت الست نانا أن السكن فى شبرا أوفر ...

ياه ... لماذا التقى بك اليوم يا تريزة لأتذكر كل هذا ؟

قبلات ودموع الجارات ... تريزة الجميلة بفستانها القصير ... كاميون العزال يسير بطيئاً حتى شارع الخليفة المأمون ... دانيال رابض فوق المراتب والمخدات .. يرد هجماتنا ، ومشاكساتنا بزعافة طويلة ... وحين يعدل الكاميون نفسه على أول أسفلت الشارع ، يجرى فنجرى . ولا نلحق به ، فنلوح من بعيد ، تزداد المسافة بيننا وبين الكاميون ... مع السلامة يا خواجة ... إبقى تعالى ياله .

ويجئ ، على فترات متباعدة .. يجئ .. لكنه أبداً لم يدعنا لزيارته فى بيتهم الجديد ، وفى مدى الأيام نكبر ، وتكبر المسافات ... آخر مرة قال أحمد عبد اللطيف :

- دانيال ... أخذ ماجستير فى فى ديناميكا الموائع ...

طول عمره شاطر ... بس يا خسارة .

ولم أعرف ما هى الخسارة ، كان الأتوبيس قد جاء فودعنى بسرعة ، وفوق السلم راح يلوح بموعد للتلاقى ، ولم يذكر المكان .

فعلاً طول عمره شاطر ... من أول يوم دراسى قال الأستاذ ... أنت تقعد فى الآخر .. يا طويل يا أهبل .. فجلس ، وأنا من الذين جلسوا فى الأمام ، وفى حصص الانجليزى والعلوم والرياضة ... نجلس فى الآخر ... يسأل المدرس فتتسابق أيادينا من تحت لتحت ، تلكزه ... وتشده ... ورؤوسنا غاطسة ، ورأسه كالسيمافور ، يتلفت حوله ، فينهره المدرس ... اسكت أنت يا أهبل ... ولا يضربه ، كان يعرف مكرنا ، ويعرف انه أشطرنا .

أقسمت أن أحداً لن يدفع ثمن التذكرتين غيرى ، مشيت وراءها فى الممر الرملى الطويل ، حتى أول العنابر التى تشبه بيت الفيل فى حديقة الحيوان ، لولا سور الحجارة العالى وشظايا الزجاج المشرعة فى أعلاه .

كانوا يهرولون اليها بلهفة جراء جائعة ، فتفرق عليهم السجائر ، وتصب لهم الشاى فى أكواب البلاستيك التى تخرجها من الحقيبة ، فيفرون بغنائمهم خلف العنابر ، أو تحت الأشجار ، بعيداً عن بعضهم ، وعن عيون الحرس والتومرجية .

قلت لها .. كلهم عارفينك يا تريز .

قالت .. غلابة والنبى .. مالهمش حد يسأل عليهم .

التجاعيد تحت العينين تشعرنى بامتداد الزمن ... الصفاء الأزرق المغدق بالحنان يكسر هاجس الرغبة فى عينى ... الجسد بكارته لم يزل .. مغلف بنعومة بيضاء نقية ، لم يمسسها بشر .

لم أخطئ الرقبة الطويلة ، والأنف المنقار ، والعينين ، رغم العدسات الداكنة ، والشروخ فيها ، والصلع الموروث عن عوض أفندى ، .. بدا لى مثل طائر اسطورى فى نحوله الزائد والشعر المهوش فى وجهه . قالت تريز :

- صاحبك مصطفى .. فاكره ؟ بتاع العباسية .

لم يرفع عينيه عن صحن الألمونيوم الذى بين يديه ، وثمالة الماء المالح فى قعره ، كان يغمس قطعة الخبز فتنتفش بالماء ، ويزقها فى حلقه ... يلوكها ببطء ... يزدردها كثعبان ، فتتحرك تفاحة آدم فى طول الرقبة .

فاكر يا دانيال ؟ .... أيام اسماعيل القبانى ...

يفيض الحنان الأزرق فى عينيها ، فتمد يدها بخبيزة أخرى ، فى حجم الكف ... خد يا دانيال .. القربان اللى بتحبه .. أبونا فام باعته لك .

تطلعت الىّ بحزن عينيها .. كل مرة على دى الحال .. الأكل مية وملح .. ولا يفتكر حد ...

وتنفجر النهنهات ، ومحاولات كبتها تزيد ارتجافة العود اللين ، ورجرجة الصدر تحت الشال الكحلى ... احساس مر يملؤنى .. كما لو كنت مسئولاً عما يحدث فى الكون ، ورغبة فى أن أضمها ، وأمسد شعرها الذى مازال فى لون الفجر .. كان أحدهم يقترب ، ويشيع بصوته الرخو الغليظ ، مزيداً من الثقل وثمة الفة من نوع ما ... رغم كل شئ .

- ما تزعليش يا مدام ... أنا باخلى بالى منه ...

ويلتفت لدانيال الذى كان مهموماً بالبحث عن شئ ما تحت ابطه ... مش كدة يا خواجة ؟

فيهز دانيال رأسه كدمية مفصلية لحيوان خشبي . فيما يحمر وجه تريزة ، وتطفح شفتاها بابتسامة باهتة .. في لون طلاء العنبر ، وتدارى انفعالاً بدا أثر كلمة مدام .

- لما تيجى الحالة يرطن بالانجليزى ... طلعوا عليه الخواجة .

اختفى وراء سور الجزورينا ... سريعاً كما ظهر ، قابضاً على كوب الشاى بفرح طفولي واضعاً السيجارة فى أذنه ، وتريزة تتكلم عن حالات الهياج التى تنتاب دانيال ، واللسان الذى ينزف من قسوة العض عليه ، وكانت شمس فبراير تغلف كل شئ برخاوة لم تنجح تريزة فى تبديدها . كانت تحاول سرد حكايات قديمة ، وتتكلم عن شخصيات لم نعد نعرف عنها شيئاً ، أو تتكلم عن المرضى الذين مازالوا يتوافدون طمعاً فى السجائر وكوب الشاى .. كثير منهم عاقل .. ولا نعرف إيه اللى جابهم.

وبدا أن دانيال نجح فى التخلص من الذى تحت ابطه ، وأسلم شفتيه بشهوة غريبة لفلتر سيجارته ، يمتصها حتى آخرها ، ثم يتمدد بطوله على سلمة العنبر محملقاً فيما لا أدرى ماذا ، فليس من شئ سوى أشجار الكافور الترابية ، وسكونها القاسى ، وسور الأحجار تلتمع على حوافه انكسارات أشعة الشمس ، وتتفتت على أنصال شظايا الزجاج ... وفيما كنا نتأهب لمغادرة المكان التفت اليه ، كنظرة أخيرة ... ومحاولة لتبديد الكآبة ، قلت :

.. «مع السلامة يا خواجة» .. وابتسمت ، فطافت على شفتيه ابتسامة تذكرنى بتلك التى تكون لحظة أن يسقط كرته فى سلة فريق الشياطين الحمر.

ترزاكـــــى ..

عندما قال لى إنـه أيضاً طبيب ، جاءنى صوته غـائراً ممطوطاً كالآتى من عالم آخـر ، كان لا يزال محدقـاً فى الحجر والجـمرات الملتاعـة عليه ، تلك التى يقلبها بماشـة نحاسية صفـراء مشرشرة من الأمام ومـشغولة على رسم إمرأة عـارية من الخلف ، وكان يمص أنفـاس المعسل فـيتوهج الفـحم ويفح ضوءاً يصبغ وجهه بـحمرة النار ، والمعـسل المحروق كان يصـنع مع رائحة العطن التى شـممتـها منذ دخولى البـيت ، مزيجاً يعـطى المكان خصوصـية تتناسب مع النقـوش التى فى السـقف وفـوق الجدران والبـلاط الملون الذى تحت السجـادة المهترئة المبـسوطة حتى البـاب المشغول بمنمنـمات تتناغم مع تعشيقات زجاج النافذة الملون .

كنت تواقاً لرؤيـة الشقة الشـاغرة فتـركت عينى تمـسحان المكان ، وراح أنفى يلتـقط الرائـحة الـتى تتـجدد كـلما تململت أو تحـركت على حـرف السـريـر ، عطن فـرش مخـزون وعـرق قديم وكـمكمـة ، تتركـز فى هذا السـرير المدقـوق بأويما تمثل طـفلـين من الملائكـة المجنـحـة بينهـمـا قلب يخـترقه نصـل نبل .

- أنا أيضاً طبيب ...

كررها ، وربما أدهشتنى المفاجأة فقلت .. هل تهزل ؟

رمانى بنظرة ملتهبة من خلال الدخان المتكاثف أمام وجهه فلاحظت دموعاً تلمع فيها انعكاسات الضوء الخافت المنساب من النافذة حيث يتشكل الدخان والألوان والأصوات القادمة من ورش المناصرة مع كركرة الماء الذى فى دورق الشيشة المدندشة كعروس .

- أنا فعلاً زميل الكلية الملكية ... لا تندهش ... سأوقد المصباح لتفهمنى جيداً .

فى ضوء مصباح الكيروسين رأيت ملامح تحكى عن وسامة قديمة تنسجم مع تراكيب المكان كأنه قطعة منه ، ورأيت عمق الشروخ فى الجدران ، واهتراء الطلاء فباخ عزمى على استئجار المكان برغم الاغراء المعلق على ورقة الكرتون بالخارج ... بدون مقدم أو خلو .

كان المكان متصدعاً من الداخل قاب قوسين من التداعى ، وهو من وجهة النظر الأخرى أصلح مكان لطبيب ناشئ يبحث عن بيئة موبوءة تصلح لكل الأمراض التى تحملها كائنات الحارة ذات الوجوه الممصوصة والعيون الذابلة التى قابلتها وأنا أبحث عن العنوان ، فقلت لنفسى وقتها ، تلك هى المدرسة التى احتاجها .

تأملت هيئته المنسحقة وهو غارق فى سرواله الكاكى المهرول وقميصه الذى بلا لون وجسمه الناحل والشعر الهائش فى كل وجهه ، وهو واقف يقلب فى محتويات رف كبير مؤطراً بالصدف والعاج الذى تساقط بعضه.

أرانى صوراً لأفراد عائلته ، وصورة لحفل التخرج وهو متدثر فى عباءة سوداء وقبعة من نوع أكاديمى ، وتوقف طويلاً عند صورة إمرأة ذات شعر أشقر مجعد وملامح رهيفة كحد الموسى فرأيت ارتعاش يديه بوضوح ، كذلك الذى لاحظته عندما قدم لى كوب الشاى فاصطك فى الطبق الصينى الصغير المرسوم عليه تاج ذهبى وهلال بثلاث نجوم .

عاد لمكانه فوق الحاشية المهلهلة التى على الأرض ، وقرفص أمام الشيشة وعب من زجاجة السبرتو ذات الزور الضيق والبطن الواسع حتى تناثر وتسرب إلى شعر ذقنه ، وتشرب على قميصه وفاحت رائحته كما حدث عندما أشعل الموقد ووضع الكنكة النحاسية فوق اللهب الأزرق الصافى .

قلت له .. اننى جئت لأعاين الشقة الشاغرة ، وان الصالة واسعة تأخذ عدداً من المقاعد كبيراً ، لكنها بلا نور ولا ماء فقال ...

– تشرب الشاى أولاً .. وتأخذ لك نفسين .

ومد مبسم الشيشة ناحيتى فرددته اليه بكفى ، فالتقمه بين شفتين زرقاوين وراح يمص ويسعل حتى انقطعت أنفاسه فخفت أن تطلع روحه .

رأيت الدموع تطفر من بين جفونه المتقرحة ، وتسيل على جلد وجهه المدبوغ ، وتذوب فى إفرازات أنفه ، فيمسح بكم القميص ويبتسم ، ويحكى عن الفتاة الانجليزية التى التقطها من حوارى اكسفورد وتزوجها ، وجاء بها إلى مصر لكنها «بنت الكلب لم تعرف لنهمها حدوداً ، نامت للخدم والسريحة وحاولت إشباعها لحد الهلاك ، .... فشلت ... فقتلتها بيدى هاتين ، ... فى هذه الحجرة من أربعين سنة .. وابنتى عصمت

هنـــا .. تصرخ على هـــذا الســـرير ، الـذى لم يغـيـــره الزمن ... كـانت آخر مرة رأيت فيها وجهها» .

شعـرت برجفـة تسـرى فى دمـى ، وأحـسسـت بتـيـار بـارد يهـب من تحت السرير ، ويمس ساقى ، فـضممتهـا إلى بعضها ، وتنبـهـت لنبرة الحزن التى علت فى صـوتـه هذا الذى تهـدج واختنق ، وحـاولت كـتم صـوت اصطكاك كوب الشاى فى الطبق الذى فى يدى فوضـعته على منضدة ذات قـرص رخامـى مـستدير مكـتظ بكتـب ومـجـلات قديمة وفـازة مكسـورة بـلا زهـــور .

- خـذلك نفـسين .. الشـيـشـة دى ملوكـى ، ورثناها عن جـدنا الأول ترزاكى ... بص للشغل والزخرفة ...

ولمّا كنت فى حـــالة لا تسـمح لى بالـكلام عن الفنون والجـمـــاليـات ، وضعت المبـسم بين شفتى فابتـسم ، وبانت أسنانه مثرمة سـوداء ، وسعلت من أول نفس ، لكنه قال ...

- ظننـتك من مهندسـى المحافـظـــة .. يـريـدون تطـفيشى وهـــدم هذا المعـمـار الجميل ... لكنى لن أتخـلى عن آخر دليـــل على عظمـة عـائلة تـرزاكـى .

ولما صارحـته بأن البيت آيل للسـقوط ، تجهم وجـهه وتشكلت ملامـحه بغضب كظيم .

- أنت تقول مثلهم ... سكنوه عندما كان أجمل بيت فى باب الخلق ... وتخلوا عنه الآن ... وراحوا يتكلمون عن عفريت ماتيلدا .

استرجعت صورة المدخل الواسع ، والماء الراشح على حجارة الأرضية المتآكلة والدرج المعتم ، وصوتي الذى كان يضيع فى نسيج الظلام والصمت وأنا أناديه ، ورائحة العطن التى تروج فى الدرج الرازح تحت أكداس القمامة وعلب الصفيح وزجاجات أحس بها تحت قدمي تتكسر وأنا أتحسس خطواتي وأتلمس الدرابزين الحديدى البارد الصدئ ، وأحدق فى عمق بئر السلم فيبخ وجهى بتيار بارد ومزيد من العطن .

كل هذا ولم ألحظ أن البيت بلا سكان غيره ؟

وكيف لى أن أعرف وكانت كثافة الظلمة تتفاقم كلما صعدت درجة ، حتى عندما سمعت صوت الباب ينفتح ، واشتعال عود الكبريت الذى انطفأ بمجرد أن مده فى بئر السلم ...

كنت مشغولاً بالتفكير فى الشقة ، ومشروع العيادة الذى يوجه مستقبلى ، وأبحاثى التى أفتش عنها فى بطون أطفال الحوارى لكننى حين رأيت وجهه المحفور فى ظلال ضوء الثقاب المرتعش ، وشعره الأبيض المغسول بإحمرار النار ، أحسست كأن قلبى يحاول الهروب من أسر ضلوعى ، ويخلف المستقبل .. والعيادة والأبحاث على قمامة السلم ... وأنقدت خلفه .. وتجاوزت معه الصالة الواسعة الخالية من الأثاث ، وارتحت لضوء النهار الناشع فى فراغ النافذة المكسورة التى تطل على مسقط ضيق ، وتجاوزت معه الطرقة المخنوقة بأبواب مغلقة على الجانبين حتى انتهى بى إلى هذه الحجرة ، وأجلسنى على هذا السرير ، وراح يحكى لى عن ماضيه الذى تجرأ عليه الزمان ، ويحدثنى عن جريمة قتل وشبح المرأة العارية الذى يظهر كل ليلة خميس يصرخ صرخات شبقية تسمعها كل الجيران .. مالى

أنا وكل هذا .. لازلت أسعل من شيشته الملوكى وهذا الوجه الخرب يسخر منى ؟

قلت محاولاً التخلص من الموقف ... لكن شقة بلا ماء ، ولا نور ؟

قال ...

- اسمع ...لن آخذ منك إيجاراً أيضاً ... تكفينى صحبتك ... وسوف أمنحك خبرتى كطبيب .

داريت ابتسامتى الساخرة وقلت ... لعلك تحتاج الإيجار ...

راح الجمر الذى على الحجر يطقطق ويميز لما سحب النفس العميق ... قال ..

- الأرض التى عليها البيت تساوى ملايين .. ولكن ماذا أفعل بها .. أمنحها لمن يعيد إليّ ابنتى التى لا أعرف أين هى الآن ...

ووجدتنى أقول كيف ؟

ورحت اسمعه وهو يحكى لى عن الأسرة التى هاجرت إلى الخارج بعد الثورة ، وأخذت معها ابنته ، وحكى كيف أن أهله خافوا من الاتصال به فى السجن لئلا تعرف لجان الحراسة أماكنهم فتطاردهم فى الخارج كما فعلوا مع البرنس نبيل الباز .

امتدت يده إلى زجاجة السبرتو ، وذهبت بتلقائية إلى فمه ، وفاحت رائحته فكأن الحجرة ماخور من القرون الوسطى ، وسقطت دموع ، كانت هذه المرة بلا سعال أو دخان ، وكانت تنحدر فيدس وجهه بين ركبتيه ،

وطالت فترة صمت ، قطعها بنشيج عال ، وبص فى اتجاه الطرقة المفضية إلى الصالة وقال .. لامؤاخذة .. ومد مبسم الشيشة فوضعته بين شفتى ووجدتنى أتزحزح على حرف السرير حتى صرت على الأرض معه وسمعته يقول .. الحراسة رفعت عن البيت بعد خروجى من السجن .. لكنه كما تراه .. وفكرت .. كيف استفيد من هذا الخراب ؟ .. خمسة وعشرين سنة أرقب الثعابين والعقارب فى المحجر ، وعرفت كل أنواعها وألوانها ، وحيلها فى التخفى ، مسجون من أبى رواش علمنى طريقة لصيدها ، وأماكن بيعها... عملائى كلهم علماء وطلبة علم .. مهنة نادرة تكفينى لآكل وأسكر .

كلامه عن المهنة لم يدهشنى ، كنت أعلم بها ، لكنه ذكرنى بسعد البطل الذى كان يبيع لنا حيوانات التجارب فى الكلية ، كنا نخشى مصافحته أو التحدث إليه عن قرب ، من جراء مهنته أشيع عن مرضه بالطاعون ، جزعت نفسى وانتابنى خوف وفكرت فى مصدر العطن من حولى ، والمبسم الذى وضعته فى فمى ، وندمت على التورط فى العلاقات السريعة. وكان هو مستمراً فى كلامه ...

أحياناً أدعى لاستخراج ثعبان من أحد البيوت القديمة ، الناس يدفعون أى ثمن ليتخلصوا من خوفهم .. أسمونى الرفاعى .. اسمى الحقيقى نرزاكى .. لكنها ليست مجرد مهنة ، بلا فخر أنا صاحب مزرعة ثرية .. إذ كيف تستفيد من هذا الخراب ؟

قلت مذعوراً ... هنا ؟

- نعم ... سأطلعك على نتائج أبحاثى عن الطريشة وأم أربعة وأربعين .. هل تعرف الطريشة ؟

دخل برأسه تحت السرير ، وسحب من خلفى صندوقاً صغيراً من الكرتون ، كشف الغطاء وهو يقول «ذى مجموعة من الثعبان الأحمر النادر» فانتفضت لتوى وتراجعت إلى أول الحجرة ، لكنه قال بلهجة جادة .

- أغلى أنواع السموم ... يسمونه ثعبان كيلوباترا ..

.. كنت قد انتهيت إلى الطرقة المظلمة ذات الأبواب المغلقة ، تجاوزتها للصالة الواسعة ، ورحت أقفز الدرج المتآكل دون لمس الدرابزين والزجاجات تتكسر تحتى ، حتى أن رأيت نور الشارع سمعت صوته يذوب فى عمق بئر السلم ..

- نحن لم نتحدث عن العيادة .

زينهـــــم ..

فى ضيق الحجرة المظلمة يتحسس بقدميه ، ويدوس اللحاف الملطخ ببقع لزجة ، مـجهولة التـاريخ ، فتفوح روائح قـديمة ، ووتناثر نتف قطن داكن ، وتذوب فى العتام .

يزق الباب الخشبى فيـصر فى الصمـت الجاثم ، زاعقـاً وممطوطاً كان ، ورويداً رويداً ... تنكشف المرئيـات ... فيشـوف نجوم الصبح فـوق الحوش العارى ، والظلام الخفيف تحت السلم الطالـع للسطح يسمح له برؤيتها ... غارقة فى صمتها الذى تعشقه ، وأطراقها الوادع الأليف .

يسـعل ... البـرد القـديم ، وهبـاب الجـوزة... رفـيقـة الليل الشـتـوى الممطـوط ، تسمع هى ... تحـمحم بصهيل مكتوم ... وتـضرب بذيلها ذات اليمين وذات الشمـال ، وتخبط بقوائمها الأرض الرخـوة ... ولا تهدأ حتى أن يقول بصـوته المشروخ .. بس يا فـرسة ... والماشى فى الشـارع يراه وهو يفتح باب الحـوش ، ويرى رأسه الملفوف بـالكوفية الصـوف الزرقاء ، يطل من وراء الباب ، ويده الممدودة العارفة طريقـها إلى ربطة البرسيم الحجازى الندى ، الذى يتركه العلاف فى الفجر أمام الباب ، فتسيل رائحته فى رطوبة الفجر ، وتداعب منخاريها بأطياف خضر .

وبعدمـا يطص وجهه بكوز الماء ، يـنزوى فى ركن الحوش ... عند أول السلم الذى بلا درابزين ، يقلب ناراً أوقدهـا ، فيتماوج بخـار الشاى المغلى والخشب المحروق والمعسـل ، وصـوت السعـال يشـرخ تنهدات الصـبح ، والبصاق ... الدائم على الشمال ... وقـبلما تلمس الشمس درجات السلم العليا ... يقوم ، ويمسح بكفه الخشن على بطنها ، فتلم الجلد وتبسطه بالتذاذ ناعس ، وحين تراه يميل بحـمل الدلو الثـقيل ، تسـعـى اليـه لهـفى ، وتمد مشافرها ، فيندلق على جلبابه ماء ... وعلى قـدميه ... فيضعه على السلمة الثالثة ويعود للنار ، وهو يسب ، ويلعن فى سره أشياء معتادة .

وحين يراها تباعد بين ساقيها ، ويسمع طشيش البول على الطين الرطب يفتح الباب على مصراعيه ، فتنسحب بتكاسل للخارج ، تنثر حولها روائح البول ... والطين ... والبرسيم المأكول ... وتنفض نفسها أمام العربة القابعة تحت النافذة ، فـيظهر هو عند الباب ، وبيديه المعروقـتين هاتين يلقى جوال التبن فـوق العربة ، ويـنهمك فى تعليـق العريشـة على ظهـرها ... يقفـز ، ويسـتوى على الـعربة فى هدوء ... وهى صـامـتة .. صـاغـرة ... تترصد الأحوال ... وما أن يقول بصوته المشروخ هذا ... استعنا على الشقا باللّه .. تتحـرك .. ويستسلم للارتجـاج الخفيف .. غافـى العينين ، وسنان الملامح ، وحين يشعـر باختـلاج المسرع فى يديه ، ويحس خطوات الفـرسة تتـثاقل ، يفتح عـينيه ... نصف فـتحة ، فـيرى عربة الخـضــــار ، والحصـان الأسود الغطيس ، ويســمع جـلاجله المفضـوحة ، ويملأه دخـان اليـسجـارة التى لا تفـارق أصـابع العجـوز الغـافل ، ويتناهى الـيه ، فى إيقـاع خـاص ، أنات لواحظ تحت حـمل أقفـاص الطمـاطم والباذنجـان ، تريحـها على صـدرها الرجراج ، وتحطها على فرشتها .

ويتذكر ذلك الفجر .. كل يوم يتـذكر وكأنه لا ينسى .. حين قرر مرة أن يجيب طلبـها ويذهب معهـا للسوق ، كانت تلح ... وكـان يقول ... أنا لا أحـمل من السوق يا لواحظ ... وتحلف بـأيمانات المسلمين ... لولا الحاجـة ومرض العجوز ما طلبت .

وحين تكومت بجـواره ، وتدثـرت بالبطانيـة الميـرى الكالحـة ، وشـاف ارتجاج جـسمـهـا الملبن ، ذاب البـرد من أطرافـه ، ... وها هو يشم رائحـة الخضار الطازج ، فـتملأه رائحتها ويحس مـلمسها الدافئ النعسـان ، فـيقول من فوق العربة ، ومن تحت جفونه نصف المفتوحة ... صباح الخير يا لواحظ ... يخطفهـا ... فيـسقط الصاد ... ويسـقط الألف ، واللام ، فتـرد بصوت حلو ، وتنهيدة مسحوبة ... صباحك فل ياسى زينهم .

هـــدى كـمـــال ..

«... يموت على شـفتى الطلاء ، وتنمـو ... مسـاحات الفراغ ، شـتاءات مـتواترات ، يتـخثر فى نهـدى الحليب ، وحين تخـتزن خـلاياى انكسـارات ضوء النهـار ، أشتـاق لطائر يمنحنى ... أغنية دافئة» ..

المعـذبـــة

H . K

ثنيات كثـيرة فى الورقة ، يتتبعـها وهو يطويها كما كانت ، صـغيرة ... ومكرمشة وآثار عرق ، وعطر النهدين يفعمها .

كانت تودعها الكف المتـأهب للحظة الانقباض ، وتمضى ، تندس بينهن وتشاركـهن الضحك ، والشـفاه تفرز أحـاديث عن الرجال ، تتـساقط عند محطة الأتوبـيس ، وحين يجئ ، تندس فى ظمأ الأجـساد المنهوكـة ، فيـما ينهى آخر تعليقـاته عن فيلم الأمس ، وتوقعاته لمبـارة الغد ، ويودعهم بتلك الحرارة المفتلعة ، التى يلقونه بها كل صباح .

وفى الأمسيات الشتوية يرافقها فى ارتياد المحلات الساهرة ، وأمام الفاترينات تتلكأ إيقاعات الكعب العالى ، فوق بلاط الأرضية المبلول ، وثمة أصابع رقيقة تتلمس مسطحات الزجاج البارد ، وهى غاطسة فى الفراء الداكن .

- الأسود يناسبنى ... أنا بيضاء .

تتعلق بذراعه وتكتم ضحكتها فى صدره ، حين ترى ارتعاش شفتيه وهو يحدثها عن هذا النوع من الملابس ، وحين تملؤها رائحة عرق ، وعطر داكن ، تهمس :

- جائعة .

كان الرجل يقبض على السكين قبضة محترف ويجز نسائر اللحم ، فتتساقط حول الكتلة المخروطية التى تدور أمام النار ، كانت تنز عصيرها ، وتسكب عبقها الخاص على ملامحها وفى عينيها . ينعكس ذلك البريق ، ويزحزحها بلا وعى فى اتجاه النار ، واللحم الساخن ، وفيما تنساب إيقاعات ديسكو من نوافذ سيارة تنطلق فى عمق الأضواء الخافتة ، وتتداخل مع همهمات الزبائن الخارجين من دفء المطعم ، كان يفكر فى لحظة احتوائها وغمر مساحات الفراغ البارد التى تتحدث عنها، حين تمارس طقوسها الليلية . مع فراء لثعلب ، وألبوم صور قديم.

قالت ... لا تتركنى الليلة وإلا قتلت نفسى .

وعادت تدس وجهها فى صدره ، فأحس بأنفاسها تخترق صوف القميص ، وبدفء رقيق فى مساحة كفها يتحرك فى جيب البنطلون .

***

- صورته ؟

- هى ..

كانت ملامح طفولية ، تلك الغارقة فى البدلة العسكرية ، والنجوم ... ذهبية البريق فوق الكتفين استكانت ، للعينين نظرة ثعلب صغير ، وعلى الشفتين ابتسامة جيوكاندة ..

أبداً لا تكشف عن تلك القسوة التى تتحدث عنها فى رسائلها ..

- قالت .. عشق الصحراء .

قال ... وأنت ؟

- لا أستطيع .

لاحظ الانفعالات فى حركات اليدين ، وهى تبتلع قرصاً التقطته من علبة صغيرة فوق الكمودينو ، وتترك أحمر الشفاه على حافة كوب الماء المثلج ، وبدا أن ملامحها تتغير وهى تحتضن جدار الكوب البارد .

قال ... منذ متى ؟

راغت بنظراتها نحو السرير ، كان الفراء مطروحاً هناك ، لامعاً وداكناً ، ويبدو حياً وهى تتلمس أطراف الشعيرات الناعمة ، تقربه من أنفها وتستنشق بعنف ، كانت دائماً تقول ... انه يقتلنى بنعومته .

حين استقطب عينيه الضوء الخافت المنبعث من ناحية المطبخ ، فكر فى طريقتها الرومانسية لإعداد القهوة ، تسلل كقط مغامر يدخل بيتاً للمرة الأولى.

وثمة إجابة لا يجدها ... كيف يكون للخوف هذه اللذة ؟

وحين رآها ، تراخت نظراته ، كانت دافنة وجهها بين ركبتيها ، وكان شعرها مهوشاً ، وجسدها العارى يلمع فى الضوء المنبعث من الثلاجة المفتوحة ، وثمة ظلال داكنة كانت تشكل الجسد ، وتسحب منه الحياة ، وحين لمسها اهتزت ، وانساب أنين خافت ، وكان لجلدها برودة ، ونعومة قاتلة .

- أتركنى ..

- الآن ؟

- حالاً .

- لماذا تعذبين نفسك ؟

أخرج .

كان يعدل الكرافت وهو يتسلل كعادته ، وانزلاق لسان الكالون كان ناعماً ، وحاسماً خلفه ، وباب الثلاجة كان يصفق بعنف ، وثمة نشيج عال ينصهر فى المكان .

ولـــــد ..

حين أخذه مـنها ، رماه عـلى طول ذراعه ، فاصـطك النحاس الأصـفر على البلاط العارى ، ولما فاحت رائحة الجاز مسح كـفه الصغير فى الچاكتة الكسـتور ، كانت مـقلمة ، وزرارها الأخيـر منزوعاً ، والآخـر مكسوراً ... رآهما كـثيراً ، ويراهمـا الآن ، وهو يتفادى نظراتهـا الرصاصيـة ، وكلمات التهديد الفاتر تقول :

- لك أب سيؤدبك .

فقال من بين أسنانه :

- لا ... ليس كل مرة .

بالخـبرة كـان يدرك انها لن تقـول ... حين يجئ آخـر الليل . يكون هو نائمـاً ، وتكون هى قد نامـت ، لكنه .. يسمع الخـبط على البـاب متـتابعـاً، فيـأتيـه كالحلـم ... من بعـيد ، ويحس بهـا تنزل من فوق السـرير ، تجـرجر قدميهـا على البلاط ، ويسمع ... حاضر ... معجـونة بالنعاس ، والضجر ، وتكة الترباس آخر الليل تكون زاعقة ، ويحس به وهو يدخل، ينحنى عليه ، يكاد يقبله ... فيشم رائح الدخان فى أنفاسه ، وحين يبدأ فى خلع ملابسه ، تنتشر بين أركان الحجرة الصغيرة ... رائحة التعب .

- الولد اتعشى ؟

مازال على جانبه الوابور ملقى ، وبزبوز الجاز يتسرب من عند المحبس ، وبقعة شفافة ، تتسع وتتسع ، والتهديد المشروخ يتفتت فى حنجرتها ، ويذوب فى التحدى الصغير ، ... لكن الرائحة تقتحم خلاياه ، وعاودته نوبة السعال ، فتمتقع الملامح ، وتبك دمها ، وشرخة عميقة تسكن الصدر الضامز ، وتلون الصوت بسلخة واهنة ، فيخرج كأذان ديك صغير .

- سأخرج ... ولكن .. لن آخذ الوابور ... الجاز يخنقنى .

وقبل أن ينفلت للخارج ، يلقى نظرة تنغرس بين دفتى باب حجرة الجلوس ، كان موارباً ، فلم ير إلا القدمين ، والبنطلون الأزرق الخشن .. واليدان .. كانتا تتحركان ، وتفض الأصابع الغليظة ورقة السلوفان الصغيرة ، تلتقط القطعة البنية اللينة ، .. وتضغطها ... تضغطها . وانغلاق باب الشقة خلفه كان عنيفاً ، فراودته راحة صغيرة ، وهو يهبط الدرج ، ويذوب فى تراب الشارع بين الأولاد ورمحهم وراء كرة لا تمل الركل ، ؤبين دفتى الباب الموارب ، كانت تتسلل فى نعومة ... وتذوب فى الزرقة وحين يحرز الولد هدفاً ، فانه لا يجرى ... ولا يقول مثلهم ...جول .

- الولد اتعشى ؟

فى آخر الليل قالها كالمعتاد ... وربما أجابت بهزة من رأسها ، وربما لم تجب ، فلم يسمع شيئاً وهو غاطس فى سريره بعينين نصف مفتوحتين ، لكنه يسمع خروشة كيس الفاكهة وهو ينزلق من بين الذراعين على الكنبة ، فيمنى نفسه بحبات الجوافة التى فحفحت فى الحجرة حين يجئ الصبح ...

لكن السعال يبدأ هجومه المعتاد ، فلا تصل اليه الكلمات المكرورة التى كانت ترددها وهى تضع قليلاً من الجاز على رأس الوابور ، وتشط عود الكبريت ، وكانت حروف كثيرة تتساقط فلا تصل للرجل الممدد على الكنبة ، يدخن سيجارة ما قبل العشاء ، ويلقى نظرات كليلة ، نحو السرير ، الذى راح يهتز بعنف السعال المشروخ ، وشيئاً فشيئاً ، ينتظم وشيش الوابور، لكن الكلمات مازالت مكرورة ، والحروف متساقطة ، لا تخبره أبداً عن ذلك الذى يجئ كثيراً فى عز النهار .. وعينى عينك تلقاه بالقميص الستان الأحمر ، وفى كل مرة تقول ... يا ولد ... خذ البابور للسمكرى .

كان النعاس يضغط جفونه .. يضغطها فيقاوم ، وتظل الكلمات المكرورة ، والحروف تضيع فى صوت اصطكاك الملعقة فى الطبق الصاج، ورويداً ... رويداً ... تذوب رائحة الجاز فى رائحة الجوافة ، والشاى ، والطبيخ المغلى .

وجـه حنـان المحترق ..

فجأة أحس أن هذا الشـارع الطويل خلا من سكانه ، بص للوراء فلم ير من الخلائق أحـداً ، جرى إلى أقرب بقـعة ضوء ، كـانت واهنة بما لا يكفى لإزالة الخوف لصبى ، رأى النوافـذ والبيوت جسداً واحداً من حـجارة، قرأ الفاتحة كما علمته أمه ، وامتدت يدها الطرية ، تمسح الدموع وتهدهد الجسد المرتعد ، دفن وجهـه فى صدرها ، لعله يرى العقد الـذى أحب لمعانه ، كان هذا الوجـه البشع يلمع فى ظلمـة الشارع ، نبـتت الأنياب الحـادة ، وبرقت العيـون االشيطانيـة ، صرخ وتكوم علـى الرصيف المطين ، دارى وجـهه فى كفـيه المنقـوعين فى الشحم والزيت ، تسـربت إلى أنفه الرائحة الـتى تصبغ مـلابسـه الملهلة ، سـمع الصـوت الغليظ الجـاف ، اذهـب واطعم نفـسك ، وعندما تلقى الصـفعة الأولى من الكف المشحم الخشـن ، غاص بكل برائته تحت السيارات القديمة ، وتعلم شراء السجائر الفرط ، والتسكع فى صالات السينما ، والحدائق الليلية المفتوحة ، وعشق نهار الشوارع الذى ذوب الوجه البشع . هذا الذى كان يطارده فى فترة مـرضها الطويل ، وكان يسمع صوته ويحس أنفاسه خلف أذنه ، وعندما حكى لـلصبيـان فى الشارع ، قـالـوا .. وجـــه حنـــان التى ماتت محترقة .

لكنك الآن رجل تكسب من عرق جبينك ، وتشترى رغيف الحواوشى وتدخن الشيشة على مقهى البرنس .

وعندما رآه من بعيد ، يهرول ، ينبح ، فرح به ، وفرش قلبه الأخضر على أسفلت الشارع ، مد بصره ، كان الوجه البشع يتلاشى فى البقع الضوئية المنتحرة على الأسفلت المطرى ، وقدر أن العلاقة القديمة بينه وبينهم ستسمح لهما بالمؤانسة ، صفر ودلك الفروة المبلولة فتراقص الذيل الملتوى ، ولعق الشحم على الوجه والرقبة ، احتضنه لأن جدته مرة حكت عن العفاريت التى تخاف الكلاب ، وتمنى أن يصادق كل كلاب العالم ، عندما هدهما اللعب ، انزلقا تحت البيچو الصفراء وقال .. هنا أرض بلا طين وسماء من غير مطر ، وفرد جسمه النحيل فى الدفء الشفاف ، واحتضن الفراء الحى وأغمض عينيه لأن يد صبى البرنس ، لن تطوله الآن، ولن تتسلل داخل السروال المقطوع عندما ينفرد بهما الليل فى دفء المقهى المغلق .

من فوق الشوارع والبيوت ، بصت الشمس بعينيها ، بصة امرأة لا تخاف ولا تخشى ، وفردت جسمها المفضوح بلا حياء ، انتشى الشارع كعادته بحركة الخلائق ، وبجوار رصيف من طين ، وأمام بيت من حجارة تحركت بيچو صفراء ، ورأى الناس مخلوقين ضئيلين على الأرض ، وتحدثوا فى طريقهم عن حكمة الخالق لأن طفلاً وكلباً لم يمتا .

ملامح

١ - فتح النوافذ

٢ - أيام هند

٣ - رجل وامرأة

٤ - اجتياز

٥ - الذى لا أعرفه

٦ - دائرة الصبار

٧ - نظرية الاحتمالات

٨ - احتفال

٩ - كارتون

فتح النوافذ ..

ينفض الصبح يده من سمار الفجر ، ومن خلف النافذة القديمة ، أراه عيوناً صافية ، وبقعاً فضية ، تتمطى على جدران الحجرة ، وسريرنا القديم ، وأنا متكوم تحت قدمى أبى وأمى ، يتوق قلبى الصغير لنور الخارج ، ورؤية بنت العرب ، وغنمائها تسوقهن بخيزراتها الطويلة ، التى هى أطول من خيزرانة أبى ، المبرقشة بحروق الضرب ، والمخفية فوق الدولاب ، حيث لا تطولها يداى ، وتطولها يداه بلا عناء .

***

جو الحجرة مشمول بغطيط وشخير ، ورائحة النوم تثير داخلى شعوراً بالغياب ، وأطياف خوف تلامسنى ، أنظر لأمى ، فخذاها عاريان ، وثيابها مطوية تحتها ، أغطيها ، وأنا أملأ عينى ببياض لحمها ، وأرى منديل رأسها المزهر فوق الوسادة مطروحاً ، مفعماً برائحة الفازلين، فألمس شعرها اللامع ، وأقبلها من شفتيها ، وأملأ صدرى بعرقها ، وعطرها الذى تخفيه بين ملابسها فى الدولاب ، أستريح على صدرها ، وعندما تحس بضآلتى فوقها تدفعنى بعيداً ، تزوم

بكلمات ناعسـة ، وتمنحنى ظهرها ، تضـرب اللحـاف برجلهـا ، وتعلـق ذراعها العاريـة ، على زنـد أبى .

***

كل ليلة ، يعـاودنى حلمى القديم ، أحفـر تحت الجدار المهـترئ الطلاء ، أجمع نقـودى الذهبية التى طالما أخفـيتها عن عـيال الحارة ، أملأ حـجرى ، وأجلس عند المقام فى انتظار هند ، وحين تأتى أفرد لها ذيل جلبـابى فتتقافز منه فئـران صغيرة ، فـأصرخ .. أصرخ فتهـزنى يد أمى ، وأظل يقظاناً أنتظر الصبـاح ، وحين ينفض الصبح يده من سمـار الفجر ، يتـوق قلبى للخروج ويملؤنى غيظ غـائر ، حين أفشل فى سـرقة خيـزرانة أبى ، التى يحتـفظ بها بعيداً بعيداً فوق الدولاب .

***

كانت إحدى أمنيـاتى أن أصارع كيشهن الفـحل ، كنت أراه من نافذتى يتقدمهن مشرعاً قرنيه لأمام ، فيفجر داخلى معنى التحدى ، أتسلل من تحت قدمى أبى وأمى ، وقبلمـا أخرج للصباح الطازج ، أسـرق رغيفين من تحت السـرير أعطيهـمـا لابنة العرب ، فـتمـنحنى أثداء نعاجـهـا، أمصـها حـتى الارتـواء ، وعندما يقتـرب منى كانت تضربه بخيزرانتـها الطويلة ، تضربه كالآخريات وتدعنى أرتوى .

***

فى ليل رمضـانى النفحـة ، أشعل فانوسى ، وأذهب عند المـقام ، تأتينى هند على نورى ، وتحكى لى عن بركات صاحب المقام الذى يترك لها العادة

تحت الوسادة . وأحكي لها عن كبش بنت العرب الذى أرضع أثداء نعاجه أمام عينيه ، وأحدثها عن عطر أمي الذى بين ملابسها فقالت :

- آتنى به ..

ولما جئت بقنينة العطر من الدولاب ، عطرت جيدها وصدرها وجدائل شعرها الناعم ، وفى اللحظة التى استرحت فيها على صدرها ، كانت خيزرانة أبى تلهب ظهرى وتبرقشه بحروق الضرب .

***

لما دخل علينا طلب أبى منى أن أصافحه ، سألنى عن ذكورتى ، وبتحد رفعت جلبابى ، وفى لحظة تم كل شئ ، كان الألم يصرخ بين فخذى دماء ساخنة ، وأنا أسمع ضحكاتهم .

علقت أمى فى صدرى حجاباً ، قالت .. ندعه أسبوعاً ولما فاتت الأيام السبعة سمعت ثغائهن ، ووقع حوافرهن ، فتسللت من تحت قدامى أبى وأمى ، وأخذت الخبز من تحت السرير ، فسألتنى بنت العرب عن الغياب ، وحكيت لها عن الحجاب ، فقالت .. عد لأمك ، وحرمتنى أثداء نعاجها ، فسحبت واحدة منهن إلى المقام ، وتبعنى كبشهن مشرعاً قرنيه .

***

أيام هـــنـــد

من فـوق سطح دارنا أرقب الشـمس آن الغـروب الرمضـانى ، أترصـد انفجـاراً لا أعرف من أين يأتى صداه ، أتأمل أعـشاش العرب التى تحـيطها أسوار البـوص وتين الشوك ، وينبـعث منها دخـان أسود وغـموض ، وفى المدى الخلفـى ... كـانت مـــدارسنا حـــيث يفـيض نهـــر البنات الأزرق ، وسراويل الصبية الطويلة ، ورمحهم الذى يعفر المكان .

صـامتـة فى الغروب مـدارسنا ، تسـتريح من نهـار مدرسى صـاخب ، يحدق به باعة حلوى البخت والدوم والعسلية .

حين تختنق السماء بحمرة بنفسجية ، تبدو هند على سطحها برتقالة فى الغروب ، وهى تترصد الانفجار مـثلى ، بينى وبينها سور الطوب الأحمر ، ترانى ، فتنزوى فى ركن سطحها وتنهمك فى كتابها .

رمضان يأتى فى الشتاء فـيحرمنى طلوع الفوانيس فى أول الليل ، تتلكأ الشمس فى الرحيل فيقرصنى الجوع ، كـثيراً تراودنى رغبة ، أن أدهن الخبز بالسـمن والسكر ، وآكـل ولا أبالى بعـيـون الكبـار الجـائعين ، كـانت أمى تنهرنى ، تقـول ... صرت رجلاً يـا فارس ... صرت رجـلاً ... كنت تفعل

هذا فى الزمان الذى مر ... وكنت أشكو لها أخى الصغير ، ذلك الذى قلب حقيبتى ، يبحث عن الصور والرسومات الصغيرة ، كل يوم يفعل ، يقلب حقيبتى ولا يجد مبتغاه ، وكان يبكى ولا يكف . حين أسمع الصوت المدوى أهبط الدرج سريعاً ، أعب منقوع التمر والتين ، ينهرنى أبى ...

انتظر الآذان ...

***

رائعة نهارات الشتاء المشمسة ، والبنات ، حين يتحلقن حول أم إمام ، يوشوشن ودعاتها ، ويبثنها الحلم والشكوى ، ... أنتظر هند لأصحبها فى طريقى ، ترانى ، تزوغ بنظراتها عنى ، وتندس بين صويحباتها ، يضحكن منى ، وهن يضغطن بكتبهن فوق صدورهن الصغيرة ، ويغمزن بعيونهن نحوى ، وأنا أحمل حقيبتى الثقيلة فوق ظهرى ، ألمح هند تدس حبات الست المستخبية فى فمها ... أخرجى لسانك يا هند .

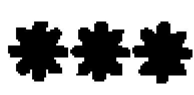
«يا فاطر رمضان يا خاسر دينك»

تغتاظ هند ، لكنها لم تعد تطاردنى أو تشتبك معى لنسقط معاً على الأرض ، كانت تفعل فى الزمان الذى مر ، لكنها اليوم ، حين همت تطاردنى ، لم أجر ، وحين لامستنى ، أهتزت أهدابها ، قالت :

نتصالح ... ونكف عما تحكيه للعيال ....

صافحتها ، ومنحتنى عود الريحان وابتسامة ، ترددت قليلاً ثم قالت :

مدرسة الدين هى التى قالت .. وأمى تعرف .



فى رمضان ، ليس ثمـة ما يدعونا للإسراع إلى البـيت ، فكنا نتسكع فى الطريق ، نمر بأعـشاش العـرب ، نداعب الجراء فـتطاردنا أمهـاتها .. ممتلـئة الأثداء تلك ، ونغيظ قرد حليمة وهو يـضاجع أنثاه فى الشمس ، والقرداتى الذى يتـأملهمـا فى سعـادة ، ويدخن سيـجارته بتلذذ ، يغـمز للبنات بعـينه العوراء ، ينـاديهن فيجـرين ، ويتضـاحكن ، ونتصـايح من بعيـد .. يا فاطر رمضان .. يا خاسر دينك .

كنا نلصق أجـسادنا النـحيلة بفـرن الكنافة ، نـدفئـها بالطين السـاخن ، ونبـحلق فى زشرشـات العـجين ، خيـوط تتـشابك ، وتتـفـزز فوق المعـدن الملتهب ، ونشـم رائحة العـجين الساخن ، فتذكرنى بيوم الخـبيز .. لازال هو اليـوم المسمـوح لهند بطلوع سطحنا ، تسـاعد أمى وأمـها فى الخـبيـز ، وأنا أتحرش بهـا تجرى ، تقـفز سور الطوب الأحـمر الذى بين سطحـينا فأرقب ساقيها .. ويحلو لأمى يوم الخبيز أن تحكى على مسمع من الجميع ، حكاية قديمة عنى وعن هند ، حين كان لنا بيتنا الخاص فى حجرة الخبيز ، وكنت أنا المكلف بالعمل والشراء ، وهند ترعى البيت وتعد الطعام ... يومها قالت .. نت عليك الدقيق .. وأنا على الخبيز .

كان الجوال لنصفه خلف السحـارة ، وكانت أمى فى حجرتها ، تغط فى نوم القليبولة ، ورأت أمى الدقيق المنثور على الأرض فصرخت .

كان وجه هنـد يحمر كلما حكت أمي الحكاية ، وكنت أنـزوى خجلاً ، لأنى فى ذلك اليوم البعيد ألقيت بكل أخطائى على هند .

أبى يعـتبـر يوم الجمـعة هذا يـوم عيـد ، وأمى دائماً تحـذرنى من ساعـة

النحس فيه ، وترفض خروجى من البيت ، وحين كنت أعود من صلاة الجمعة برفقة أبى ، كنت أخلع الطاقية والجلباب وأجرى إلى السطح ، كنت فرحاً لأن اليوم يمر بلا واجبات مدرسية ، وأعكف على استكمال صندوقى ، .. كان حلمى القديم هو أن أصنع لنفسى صندوقاً للدنيا ، كذلك الذى كان عم صابر يأتينا حامله فوق ظهره ، وكنا نحن فى عمر الأمل ، نلقاه بالخبز والنقود النحاسية الصغيرة ، وحين ينتهى الشريط يدق الجرس ، فلا نرفع عيوننا الصغيرة عن الصور المكرورة ، ولا نبرح الدكة ، كان عم صابر أعمى ، لكنه كان يعرف مكرنا الصغير ، فيهوى على أجسادنا الصغيرة بحزام عريض ، فتتقافز من تحت الستار كأرانب مذعورة .

مات عم صابر ، وتكسر صندوقه ، وتكوم بجوار عشه الصفيحى الصدئ ، لكن زوجته أم غائب التى لم تنجب قط ، لازلت تبيع الترمس فى كوز السالمون الصغير ، أتمنى أن أرى هند يوم الجمعة ، وأحدثها عن صندوق دنياى الذى أصنعه بنفسى ، وأعرض عليها مهارتى فى تحريك شريط الصور الدوار أمام العدسة ، وكيف أوجه شعاع المرآه الثاقب فى ظلام حجرة الخبيز ، وأسأل نفسى ، هل تغامر هند ، وتقفز سوراً بين سطحينا ، من أجل فرجة صغيرة على صندوق دنياى ؟ ..

لكن النهار رمضانى ، وأمى أسفل ، تطهو إفطارنا ، ورائحة الطعام تشعرنى بالجوع .. بالأمس لمحت أمى تبتلع شيئاً فى فمها ، كانت تداريه عنى ، وكان أبى يراها ولا يغضب .. أبى يقول انه فخور بى ، لأنى أصوم وأصلى وأحفظ جزئين من القرآن ...

أنظر إلى سطح هند ، ليتنى أراها ، أسأل نفسى بقلق ، هل أدهن الخبز بالسمن والسكر وآكل خلسة ؟ .. أم أرقب غروب الشمس ، أترصد انفجاراً لا اعرف من أين يأتى ؟

***

رجـــــل وامـــرأة ..

بدت خطواته على البلاط قلقة ، قـدماه تزحـفان ببطء ، وتردد ، وثـمة حركـات من اليديـن ، تكشف عن هواجس كامنة ... كـان يستـدير ، ينظر للمرأة الجالســة على الدكة الرمادية الداكنة ، ... واجمـة كانت ، وتحدق فى فراغ ثقيل .

عاد ينظر للضابط الذى كان منـكباً على الأوراق ... رآه منهمكاً ، ويهز ساقيه بحـركة بندوليـة ، عصبـية ، فـيتهـز نصفـه العلوى من وراء المكتب المعدنى .. الرمادى .

اقتـرب ، والتمعت عـيناه فى الضوء السـاقط من السقف العـالى ، كان المصباح مـتدلياً بسلك طويل ، أسود بلون الذباب ، فبـدأ السقف فى منطقة الظل عـميـقاً وداكناً ، وثـمة ريح تهب من النافـذة الكبـيرة ذات القـضبـان الصدئة ، كـانت باردة .. وناعمة ، فتـقلصت ملامحه السـمراء وهو ينحنى بعوده الناحـل ، وتأرجح ظل الرأس ، داكناً على الأوراق الناصعـة المفرودة أمام الضابط .

خبط القلم بعـنف على سطح المكتب ، توقف عن هز سـاقـيه ، اضطجع فى كرسـيه ونفخ فى ضيق وهو يحـدق فى السقـف ، رأى المصبـاح يتأرجح قال دون أن ينظر فى وجه الرجل :

- ألا انتهى من عملى ... ؟

كان من الذكاء بحيث توقع الجملة التالية .. فعاد إلى الدكة الرمادية، وجلس ، ومن جديد سمع صوتها ، كان جسمها الممتلئ ينتفض تحت المعطف البنى السميك ، دافنة وجهها بين كفيها ... لكن النشيج بدا عالياً . فانتبه لها الجندى الواقف عند الباب ، وفض غلالة كسل كانت تخدر جسده ، تثاءب ، نظر فى ساعته ونفخ مزيداً من الضجر ، وراح ينظر للضابط بطرفى عينيه ، ويزحف ببطء نحوهما .

حين شعر به يقترب منهما انتفض واقفاً ، وبان طوله المفرط ، ونحوله والانحناء الخفيف فى قامته ، لكن ملامحه راحت تنبسط رويداً، حين أحس رغبة الجندى فى الكلام ، وتوقفت المرأة عن النشيج وهى ترهف السمع، وتمسح عينيها بالمنديل المكرمش بين أصابعها ، وتتمخط بلا صوت .

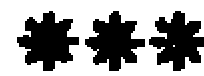
ارتبك الرجل لحظة ... ونظر للمرأة ... هزت رأسها بالنفى ، وبدت عيناها محمرتين .. قال الرجل .. لا أذكر أن له صورة ..

مط الجندى شفتيه ، وهمس ... هذا يصعب المسألة .

انسحب ناحية الباب ببطء ، وعادت ملامح الرجل تنقبض رويداً ، والمرأة تدفن وجهها ، وكان ثمة صوت يصدر من تحت المعطف البنى ... القديم ، كعواء جرو مريض كان ، وعادت نظرات الرجل ، تتأرجح بين الضابط المنكب على الورق ، والمعطف الذى عاد ينتفض .

تهالك بجوارها ، ولف ذراعه على كتفها ، فكر لو يضمها ... لو يفعل أى شئ ، وكان الانتفاض أكثر عنفاً من أفكاره .

قال كـأنه يتخلص من شئ ثقـيل ... لابد أن نسأل فى المسـتشفـيات ... وحاول تجنب نظراتها المرعبة التى تفجـرت على وجهه ، وتبعثرت على كل ملامـحه ، لم ينجح ... فمـلأه ذعر ... ولوم ... كن يده ، وارتعـد ، وخبط بكفـه على جبـهتـه ، وراح يخبط بقـسوة ، وانفـجرت منه آهة ... ونشـيج متقطع راح يعلو ، وتروعت عيناها الذابلتان بقسوة منظره ، ... التصقت به، مالت قليـلاً ، وحطت كفـها على ظهره الضـامـر فزاد نشـيجه ، وانتـفاض عـوده ، واستطاعت أن تفهـم كلماته المتعـثرة ، التقطها من بين النهنهات ... كـان يردد ... ينقطع لسـانى ... ينقطع لسـانى ... وتكلمت لأول مـرة ... قالت ... بعد الشر .



اجتيـــــاز ..

كنت متكئاً على كتفها وكانت خطواتى تتحرك بى فى اتجاه التوقف ببطء شديد ، بالكاد أترك مساحة بين نعلى حذائى والأسفلت الساخن اللزج تسمح بتزحزح قدمى بضعة سنتيمترات ، وزاد من إحساس الحمى الذى اعترانى حرارة الجو ، ودرجة الرطوبة الخانقة . وفى العين كانت زغللة ورؤية صفراء لشارع منقوع فى الأتربة وعوادم السيارات ولهيب لشمس بلا قلب .

عندما كدت أسقط طوقتنى بقوة ومسحت جبينى ثم تلونت عيناها بالشك والخوف .

- ستسقط ؟

- مجرد مطب ، وسيقابلنا الكثير .. الشارع ملئ منها .

صمتنا وتكلمت أحاسيسنا بأصابعنا وكنا نصغى لها حتى انطلق صوت آلة تنبيه مفزع . كانت السيارة خلفنا تماماً وقد أخرج رأسه من النافذة وبصق. لم أكن أتصور أن اجتيازنا للشارع يتسبب فى كل هذا . ثمة عدد كبير من السيارات توقفت وأطلقت صرخات ولعنات وكانت

أجسامها الصلبة تعكس وهج الشمس وهى تتزاحم لتجد لنفسها مكاناً فى طول الشارع .

- لابد من سيارة تنقلك .

- أنت تعرفين أننى أكره السيارات .

- أنت متعب وربما ...

- أعدك لن أموت فى الطريق .

ضغطت يدى برفق قالت .. لن تموت يا حبيبى .. على الرصيف المقابل جعر صوت .. سبها وخذ عرقها .

كانت كتلة من لحم ودم تتحرك بطول الرصيف .. لا يمكن تحديد مصدر الصوت ، ثمة احتمال انهم جميعاً قالوا نفس الشئ .. قلت :

- لماذا يتعجلون فراقنا ؟ هل أبدو ضعيفاً إلى هذا الحد ؟

كان آتياً من الاتجاه المقابل مغتصباً صدرها بنظراته ، لم يتنبه لوجودى بجوارها حتى اصطدم بى ، رمقنى بسرعة ثم تجاوزنى وهو يلتهم مؤخرتها وساقيها ، أحسست بخيبة أمل .. فقد كنت أتأهب للرد على اعتذاره .. عندئذ قلت لنفسى ، كيف أغفل جسدى المريض كل هذا الجمال .

كانت الأصوات تتلاحق وتتضارب فى صخب حاد ..وكانت آلام الحمى تنخر عظامى وتضغط رأسى بعنف ، وكان علينا أن نجتاز مفترق الطرق بسرعة وحذر حيث تتحرك المركبات فى كل اتجاه ، وحيث يتعامد الموت المفاجئ على الأجساد .

مرت سيارة كبيرة زرقاء ... وثمة نوافذ صغيرة من السلك القوى على جانبى الصندوق الحديدى .. حيث لمعت العيون والأسنان ، وتسللت أشعة

الشمس ترسم مع الظلام الداخلى ملامح وجوه غاضبة . ظلت تردد هتافات تتفجر على مرمى السمع .

قلت :

- أصبح هذا مألوفاً فى شوارعنا .

ردت بقلق ..

جسدك يغلى .

نظرت حولى بحثاً عن مكان مناسب التقط فيه أنفاسى ، عندما لاحظت حيرتى قالت ..

- الشارع بلا ظلال .. هذه المبانى الحكومية المسورة . تحبس ظلالها داخل الأسوار .

كان هناك شريط ضيق من الظل بامتداد السور . ولم يكن هناك بد من التقوقع لأنعم بشريط الظل .

اسندت ظهرى إلى الحائط وكانت تقف بجوارى قوية يغمرها وهج الشمس .. رحت أراجع المسافة التى قطعناها وأقارنها بالمسافة المتبقية ، عندما تقدم أحد جنود الحراسة ووقف أمامنا ، كان حذاؤه لامعاً يعكس كل شئ حوله ، وكان هذا أول ما رأيته فى جلستى ، وعندما رفعت بصرى وجدت كل شئ فيه يلمع ويعكس الأشياء ، سلاحه وخوذته ووجهه المشدود المغسول بالعرق قال فى لهجة غير قاهرية :

- ممنوع الاقتراب هنا يا أفندم .

ردت بغضب ..

- ألا تراه متعباً يحتاج الظل ؟ ثم نحن لسنا أجانب .. قاطعها متبرماً:

- أرجوك .. أنا عبد المأمور .

مددت يدى حاسماً الموقف .. التقطتها وساعدتنى على الوقوف .. همّ أن يتدخل ليساعدنى فى ذلك ، لكنه نظر حوله فى حيرة ، ثم ابتعد بتعبير محايد ، فى اتجاه الميدان الواسع . كانت السيارات تزحف ، تصرخ ، تثير ضجيجاً عالياً . آلات تنبيه ، حناجر تطل من النوافذ والأبواب وتقذف بهتافاتها إلى عرض الشارع . وأذرع تمتد بالأعلام الحمراء والبيضاء وأصابع تنفرج بعلامات النصر . كان واضحاً أن الفريقين يتنافسان على القمة .. وكان علىّ أن أبدو أكثر مقاومة للمرض الذى بدأ يهاجم بشراسة ، بعدما نجحنا فى اجتياز الميدان ، لنبدأ فى قطع شارع جديد ، أشد قسوة مما قطعناه . حيث بدا لنا فى نهاية الشارع مبنى المصحة .

عندئذ ضغطت على ذراعى فى حنو ، ثم جاهدت فى خلق ابتسامة ، وهى تتأمل الشارع الممتد أمامنا .

- تفتكر من يكسب ؟

بادلتها نفس الابتسامة .

- تفتكرى من يخسر ؟

***

الذى لا أعرفه ..

لا أعرف كيف أثار انتباهى فى جلسته المسترخية .. لم يكن مغمض العينين تماماً ، كانتا تبدوان كعينى قط فى لحظة اغفاءة ، تتحركان بسرعة بينى وبين صديقى الذى كان متحمساً فى كلامه ، ممسكاً بذقنى بين لحظة واخرى مردداً .

- هه .. انت معى ؟

ربما كانت هذه عادة سيئة فيه ، لكن طريقته فى الكلام - حقاً - تستحق الاهتمام .. كان يتكلم بيديه وعينيه وبكل حواسه . أما كيف انزاح من بؤرة شعورى ، وتربع هذا الرجل مكانه ، فهذا ما لا أعرفه . لكننى أعرف أن هذا ما حدث بالضبط بعدما أخبرنى صديقى أن محطته هى القادمة .

- هه .. أنت معى ؟ والله كانت أياماً حلوة .. على فكرة .. الرقيب بركات ساكن بجوارنا ... أحاول . لا استطيع ، رغماً عنى أنظر إليه . تدهشنى حركة عينيه القطيتين بينى وبين صديقى . تغيظنى ملامح وجهه المتجمد ، ورأسه الدقيق ، الملقى ببساطة على مساحة الفورمايكا الباردة، بجوار النافذة المكسورة .

من جديد أمسك بذقنى .

- هه .. ما رأيك ؟ أنت معى ؟
- آه .. نعم .. عندك حق .. عندك حق .

قلت متحسساً جلد ذقني الملتهب وعيناى تحدقان فى الرجل الذى بدا لى متماساً مع حافة المقعد فى خفة ، مادا ساقيه على آخرهما . ربما أيقن صديقى أن لا فائدة من التكلم ، أو أن محطته قد اقتربت بما فيه الكفاية . ضرب بكفيه على فخديه فى ارتياح ، وانتصب واقفاً يتمطى ناثراً حولنا مزيداً من الملل . وفى الحال ، لمّ أحد الواقفين نظراته السارحة عبر النافذة ، ثم مال بكتفه ، وانحشر فى مكان صديقى ، الذى مد يمناه مصافحاً ، بينما يسراه ، قابضة على «الهاندباج» .. رأيت انه من باب اللياقة أن أصافحه بحرارة ، وأبدى الأسف على الأيام الحلوة التى ذهبت مع تسريح الدفعة وعندما أبدى استعداده لتقبيلى ، قبلته ، وربت كل منا على كتف الآخر :

- ارجو أن لا تكون معرفة «قروانة» .

تابعته بعينى عند الباب ، تلاشى فى زحام الصاعدين والنازلين ، هذا الرجل مرة أخرى فى مواجهتى تماماً . بينى وبينه النافذة المكسورة ، فى معطفه العسكرى القديم . ويداه معقودتان فوق صدره فى علو وهبوط بطء كئيب، وساقاه ممدوتان تحت مقعدى . فجأة خيل إلىّ انه يبتسم ، حتى ابتسامته غريبة كهيئته ، متجاهلاً رحت أتابع الصور المتحركة بسرعة مضاعفة من خلال النافذة ، يصفع الهواء البارد وجهى ، ويدمع عينى ، أحسست رأسى كرة من ثلج ، غصت فى مقعدى ، وملت برأسى بعيداً عن النافذة . مغمض العينين تماماً ، مستسلماً لصوت العجلات الرتيب والارتجاج المتتابع . تطوف بى صور ضبابية خاطفة عن كلام صديقى وأيام

التجنيد التى انتهت اليوم فقط . ياه ... حلم طويل وانتهى ، بمجرد نزولى من القطار أبدأ حياة جديدة . لماذا القلق اذن ؟ أليس المستقبل بيد الله ؟ فجأة قفزت أمامى صورة الرجل . حاولت أقصاءها لكنها أبت . أحسست به يفتح عينى ، وعندما فشلت فى إبقائهما مغمضتين رأيته فى جلسته لازال يبتسم . وهكذا بادلته الابتسام دون أن أدرى لذلك سبباً ، هز رأسه فهززت رأسى ، ثم بدت ملامحه أكثر بشاشة عما قبل . اذن هذه التقطيبة وهذا الجمود ليسا إلا ردا لفعل الهواء الثلجى المندفع من النافذة المكسورة الى وجهه تماماً ، أعتدل فى جلسته على غير توقع مفسحاً لساقى مكاناً لأمدهما على راحتى ، عندئذ اكتشفت اننى انتهيت الى جلسة تطابق جلسته .. مرة أخرى هززت رأسى شاكراً وابتسمت ، فمال برأسه ناحيتى وقال بصوت مهذب :

- أعتقد اننا تقابلنا من قبل .

فكرت لحظة .

- ربما .. لكنى لا أتذكر .

- أنت من طنطا ؟

- لا .. أنا من الاسكندرية .

قلتها بسرعة ، شاعراً بالراحة ، متنظراً خيبة الأمل فى ملامحه لكنه قال دونما انفعال .

- ربما فى الجيش ، أنا كنت فى سلاح الإشارة ، وأنت ؟

مندهشاً قلت ..

- وأنا أيضاً كنت فى سلاح الإشارة . سرحت اليوم فقط .

لمعت عيناه وامتدت ابتسامته حتى غطت كل ملامحه . أحكم معطفه فاعتدلت فى جلستى ولاحظت أن عينيه أكثر براءة مما توقعت . وعندها بدأ يتكلم بيديه وعينيه وكل حواسه .

- أنا كنت فى الكتيبة السادسة .

- وأنا كنت فى الكتيبة التاسعة .

- إذن .. تعرف الرقيب بركات .

- أنت تعرفه ؟ ..

لا أدرى كيف انتقل بنا الكلام ، عن قسوة الحياة العسكرية إلى مشكلة العمالة الزائدة ، وعدم وجود فرص عمل للخريجين وارتفاع الأسعار ، واتفقنا على أن الحل الوحيد هو السفر إلى الخارج .

- أنهى كلامه براحة كبيرة :

اتفقنا إذن ؟

رددت ..

- اتفقنا .

وكنت لا أعرف كيف اتفقنا ، فأنا لا أؤمن بالحلول الفردية .

عندما هدأت سرعة القطار أيقنت أننا ندخل محطة جديدة لم أهتم -

فلازالت الساعات طوالاً إلى محطتى ، لكنه ضرب على فخديه وقام يتمطى .

لا أعرف كيف جاء هذا محبطاً لى بطريقة ما .. عدل من معطفه ونفض عن وجهه ملامح الرحلة . عندما مد يده لمصافحتى خجلاً قال :

- هل أعترف لك بشىء ؟ .. أنا لم أدخل الجيش أبداً .

مبتسماً قلت :

- كنت أعرف .

ظللت أتابعه عند الباب حتى يتلاشى فى زحام الصاعدين والنازلين .

كان الذى انحشر فى المقعد بدلاً من صديقى ، قد تزحزح إلى جوار النافذة - مكان الآخر الذى نزل لتوه - فى مواجهتى تماماً جلس . وكنت طارحاً رأسى إلى الوراء ، أتابع صوت العجلات الرتيب ، مستسلماً للرجرجات . أحكمت ردائى ومددت ساقى على آخرهما ، حتى أصبحت متماساً مع حافة المقعد . لم أكن مغمض العينين تماماً عندما قلت لنفسى . أنه ينبغى علىّ أن أقاوم الملل وأطرد عنى هواجس القلق . رحت أسترجع كلام الرجل وطريقته المقنعة .. أعرف أننى كنت مخطئاً عندما اتفقت معه . مبرراتى معقولة . كان يجب ألا أتفق معه . ليته موجود الآن - بشحمه ولحمه وعظامه - لأقول له : أنا لا أتفق معك .

كان الجالس أمامى منغمساً فى الجمود ، رأس مستسلم ، نظرات باردة ، ملامح متورطة فى الملل الجاثم بين المقاعد . وجدتنى ابتسم فابتسم .

عدلــت من جلستى معطــياً له الفـرصـة ليمـد ساقيـه على راحتـه . هـز رأسه شـاكراً . هززت رأسى فـعاود الابتسـام ، ملت برأسى ناحيته ، قلت بصوت مهذب :

- أعتقد اننا تقالبنا من قبل .

- ربما .. لكننى لا أتذكر .

- أنت من طنطا ؟

- لا أنا من منوف .

- ربما هناك .. لى أصدقاء فيها .. أنت تعرف محمد المنوفى اذن ..

- أنت تعرفه ؟

لا أدرى كيف انتقل الكلام بنا عن سوء الحياة فى القرية ، وضياع خيرها وبوار الأرض الزراعـية بعـد سفـر الفلاحين إلى الخـارج ، وانتهـينا إلى أن العودة إلى الأرض هى الحل .

عندئذ أنهيت كلامى :

- انفقنا اذن ..

ردد ..

- عندما هدأت حـركة القطار مددت يدى ، صافـحنى بحرارة ، وكنت أنظر فى اتجاه الباب ، حيث يتزاحم الصاعدون والنازلون .

***

دائرة الصبار

الشمس فوق الرؤوس كانت ، ونحن تحت رحمة الموت ، وفى عقر داره . وكان الرجل قد انتهى ، من سد الفوهة المظلمة بالطوب المخلوط بالتبن .. وبدأ فى رش المكان ، فهفت رائحة التراب المبلول وتسربت من الأنف إلى الحلق .

بكفى أحرك الهواء الثقيل فلا حراك ، أدفع ذبابة بين الأنف والأذن عائث ، وفحيح لشيخ عجوز يلوك الحرف فى فمه الخاوى كان يحتوينا. وكنا فى كل مرة يكف الفحيح نردد بآلية .. آمين .. رافعى الأكف قرب الوجوه مغمضى الأعين فى خشوع . نهز الرأس فى تسليم .. هكذا حال الدنيا .. بنبرة المنهزم تبادلناها ، وكنت أحدق فى المكان ، ويدى تعمل بآلية بين آمين والذبابة التى أغراها الموات فزاد منها الطنين .. شاهد فى كل ركن، وفى المنتصف مربع صغير .. تتوسطه دائرة الصبار المتحدى . وثمة مصطبة من طين ، وحصير مهلهل صدىء تلك بقعة الظل الوحيدة فى المكان .. حيث امتدت من خارج السور أغصان شجرة كبيرة .. تخص المصطبة برحمتها .

كانت الدعوات قد جفت فى حلق العجوز . فراح يتلو (الرحمان) بإيقاع ممطوط . بينما تغلغل الصبية بين السيقان .. تبسط الكفوف وتحثنا

على بذل الرحـمـة لموتى المسـلمين ، تحـرك واحـد ، تطوع بإزالة التـراب ، ومخلفات الطير من فوق الحصير .. وتطوع ثان ..

انحشـرنا جميـعاً في بقـعة الظل وحتى لا نفـقد صلتنا بالواقـفين حول القبر ، كنا نخرج زفيراً ثقيلاً ، مربوطاً بلا حول ولا قوة إلا بالله .

همس في أذني ... زوال ... الدنيا زوال ، لـيس أسهل من الموت . قلت فعلاً .. وسكت .. فقال .. لكنه حق .

ابتلعت كلمتي في حلقي الذي تخشـب ، وهززت رأسي ، قال .. الحياة كـذبة كبـرى كالمرأة الخؤون .. وراح يحكي قـصة الـناسك الذي اعتـصم بالجبل أربعين عامـاً .. صائماً قائماً .. ولما نزل بين الناس فتنتـه امرأة فمات عاصياً .

لم تكن لدى قـابلية للكـلام وأنا أتنفس صهـد الموت ، وأحس أنفاسـه تلفـح وجـهي .. كان الوقـت ساكناً لا ينقطع فـملـنا اليـه بالآذان .. رفـع صوته .. استـمـر يحكي القصـة التي نعـرفهـا جمـيعاً .. وكنا فـي كل مرة نسمعها ، نفـعل نفس الشئ .. نطأطئ الرأس ونمصمص الشفاه ولا نقتنع.

فجأة رأيناه .. مذعوراً ينـفض ثيابه ويتلوى .. تكلم . سمعناه ، ربما عن شئ طرى سقط على الرأس وتدحرج بين اللحم والثياب .

– فأر .. قلت .. أو ثعبان ، ربما حشرة غـريبة تسكن القبور ، وكنا نرقبه في قلـق .

رأيناه بأعـيننـا ، يتـدحـرج بين السـاقين ، على الأرض يسـتـقـر ، وأدنا الضحك في حناجرنا ، لكنه ضحك بصراحة ، شاركناه اهتزاز أبداننا .

صغيراً ، راجفاً ، يرتعد ، تخونه ساقاه الهزيلتان ، يترنح ، يخذله جناحان طريان يفردهما فى براءة ، حاول ، تمايل ، انكفأ على الأرض نطات عشوائية ، عند الحائط المهترئ الطلاء انزوى .

- منظره جميل . (اكتفينا بالابتسام) عيب يا جماعة .

قالوا .. لا يعرف الطيران .. لابد انه سقط من فوق الشجرة .

تألقت العيون بالحنان ، اقترب الظل من دائرة الصبار .

- دعوه فى حاله . (أشار بأصبعه) . أمه ستجن .

كانت هناك ، من الشجرة إلى السور العالى نسبياً . تنظر ، تستعد، تتردد. بجوار الحائط .. انتفض .. تصرخ .. يصرخ .. تنظر من جديد .. تقفز فوق السور .. تستعد .

- «واحد يقربه منها يا جماعة» .. تطير .. تدور حول المكان .. تلتقط الأنفاس .. على الأغصان القريبة تحط .

- «هل تقدر تستعيده وحدها» ؟ تلقى نظرة على العش .. تنزل على السور العالى نسبياً .. تنظر إليه .

- «يا ليت تقدر» .. تفحص المكان .. تصرخ .. يصرخ .. تخاف منا .. سعل واحد .. قفزت تطير .. الشجرة .. الأغصان .. صوت عفوى قلق .. العش الخاوى .. السور العالى .. عيون تخرج .. الطلاء القديم .. همس .. همس .

- نخرج من المدفن .

- نحن فى جنازة .

هذا ثواب .

انحنى برشاقة وحيوية .. صرخ .. حاول الهرب .. ارتعشت ساقاه الهزيلتان .. تمكن منه فوق السور ، صرخت .. أصبح فى انبساط الكف .. العيون تقفز لأعلى السور .. زادت الصرخات .. الجنون والفزع .. بين الأغصان والسور العالى .

لا تخافى .. قال قصير القامة .. انحنى آخر . اقفز فوق ظهرى .. ياه .. أنت ثقيل جداً ... ترنح فترنح .. صعب .. السور عال .. اثنين أفضل .. اعملوا شباك النبى .. عليه الصلاة والسلام .. أنت أخف منه .. شبك .. أصعد .. العيون معلقة .. بين السور والشجرة .

لا تخافى .. الأيدى متشابكة .. أجمدوا .. تشبث بالسور .. تصرخ.. تضرب بجناحيها .. حاسب .. لا تخف .. فى الكف المنبسط يرتعد .. مستسلماً .. ياه .. أخيراً .. انزل .

العيون تعود لمحاجرها .. على مهلك .. انفض بنطلونك .. ما يجيبها إلا رجالها .

لا تصدق .. معاً فوق السور ، تدغدغه بمنقارها ، تحتويه ، تقفز ، تنظر للأغصان .. للعش .. تغرد .

- طبعاً .. أمه .

- كفى يا جماعة .. نحن فى جنازة .

انتبهنا إلى صوت الشيخ ذى الفم الخاوى ، الذى كان قد انتهى من تلاوة الرحمن .. وراح يقرأ «هل أتى على الإنسان حين من الدهر ...».

وكانت الذبابة لا تزال تلقى بجسمهـا المقرز على الوجوه ، وثمة شواهد ثلاثة فى الأركـان ، وحصيـر مهلهل صـدئ على المصطبة الطينـية ، ودائرة الصبار المتحدى تتوسط المكان ، غير أن مساحة الظل ، امتدت قليلاً .

***

نظرية الاحتمالات ..

على خشب الباب المغلق ، ثنى أحدى ساقيه ، وأسند ظهره ، رحلة القلق تبدأ مع تلك النظرة طويلة المدى ، فكر أن المسألة لا تستحق كل هذا . (حكاية عادية تحدث كل يوم لى أو لغيرى تبدأ فى الشارع .. تلك البداية التقليدية .. كيف ينهى الآخرون حكاياتهم ؟) .

لاك الدخان ، ابتزه حتى شعر به يتسرب من تجويف الفم إلى الشرايين .. الشبق النيكوتينى يعتريه .. يستقطبه .

- هل أنت متأكد ؟

ابتسم الجالس على مقعد الانتريه القطيفة .. لاحظ أن ابتسامته بلا معنى، كلوحة الإيضاح التى فوق رأسه .. مفعمة بالانحناءات ليس فيها خط واحد مستقيم .

- إذا كانت صادقة فيما قالته عن التواريخ .

- هل تشرح لى هذه الورقة بالتفصيل ؟

امتدت اليد إلى الورقة التى كانت ملقاه باسترخاء على سطح المنضدة الأملس .. أنقضت السبابة فوق الرقم (٢٨) .. هذه أيام الشهر القمرى ..

المرأة تحيض مرة كل (٢٨) يوماً ... الرقم (١٤) منتصف المدة .. ضغط الحروف . قال .. هنا يحدث التبويض .

أنزل الساق المعلقة ، وانتزع الظهر من خشب الباب .. لمّ نظراته وبعثرها على الورقة التي استكانت لوخز الأصبع .. عندما رآها على الرصيف المقابل لجروبي ، تلكأت عيناه على الصدر والأفخاذ ، تلك تضاريس الإثارة الأليفة .. لكن الحزن في العينين لا يثير الانتباه .

- هل تفهم ؟

- نعم ؟ .. آه .. اسمع .. أنا لا أريد تفاصيل .. هل أنت متأكد مما تقول بصفتك طبيباً وصديقاً ؟

- كلامي يستند إلى حقائق علمية .

بين ارتعاشات الأصابع تمزقت الورقة .. دسها فى كوب الماء المثلج . عادت المزق للطفو على السطح . أعاد محاولة الإغراق ، فى لحظة . لملم فشله وجفف أصابعه . قال الطبيب :

- للغرق قانون كما للطفو قانون ..

رد بألم .. إن كل شئ يمضى بقوانين لا يخرج عنها .

«يا جاهل القوانين ، لو لم تكن أخبرته .. لو لم تكن بحت له بسرك .. هل تقلقك تلك الحقائق العلمية السخيفة» ؟ استقرت .. مزق الورق على السطح المشدود .

عندما يحدث التشبع وتتخم المسام بالماء يصبح الغرق وشيكاً .. حتى التوتر له قانون ؟» .

- هل يعنى هذا انها كانت مهيأة للحمل ليلتها ؟

- هذا يحدث عادة بعد انتهاء الدورة الشهرية بثمانية أو تسعة أيام.

هذه السيجارة القذرة كالشياط .. وأدها فى رمال المطفأة الكبيرة .. لحظة فكر لو يقلع عن التدخين ، عندما تحركت أصابعه تلقائياً فى اتجاه العلبة ، دفع الآخر بالولاعة .. تناولها بنفس التلقائية ... من الضغطة الأولى انبثق اللهب .

مشى فى محاذاتها .. وترك عينيه تلفان حولها وتطوقانها بالنهم المرتعش. وبنبرة الصوت التى لا يملك غيرها تكلم .

بعد الدقيقة الأولى ، انتفخ بنشوة الانتصار . فكر فى كل شئ ، فى الفراش ، ونوع العطر ، والعصائر المجددة للحيوية .. والكباب ، كانت تتكلم .. تقول .. انها قادمة إلى القاهرة ، تبحث عن أمها المتزوجة .. تقول إن أباها سقط من فوق السقالة فمات قبل أن يلمس الأرض .. تقول انها تنوى الحياة بالطول أو بالعرض .. هل تساعدنى فى البحث عن عمل ؟ أنا أقرأ وأكتب و .. وتأكدت انه لا يسمعها .

- قالت لى انها بكر فلم أصدقها .

- أنت تتحدث عن الضمير يا صديقى .

- هل تظننى حيواناً ؟

كان المساء نهراً مفعماً بالنشوة .. رغم محاولات الاختباء ... نقر أحدهما على الباب .

دس عينيه فى ثقب الباب المغلق ... وخزها نهم الصوت الخارجى فقالت .. هل تتركنى لهم ؟

اختلج اللحم الساخن وتاهت العينان على الجدران الجافة .. تعثرت فى انكسارات الزوايا . وتساقطت أمام الباب المفتوح .

- أعترف اننى تخليت عنها بلا مقاومة .. لكننى لم أفكر فى المسألة هكذا إلا بعد أن رأيتها تترنح على السلم فى الصباح .

- هل تعتقد انها صادقة فى كلامها ؟

- كان واضحاً انها المرة الأولى .

تسكعت قدماها على أرض الحجرة الدافئة .. كل شئ مبعثر فى الأركان .. برغم الغبار الذى يكسو الأثاث . أحست رفاهية العائش هنا. لكنها ابتسمت وقالت لنفسها . هذا المكان لا تحيا به امرأة .. فكرت لو انها عاشت فيه .. فقط تعيش .

أكلت وشربت شاياً وتكلمت .. فى كل شئ تكلمت . عن أحلام البنات ، وطرحت أسرارهن على الفراش الوثير ببساطة . عندما تراخت بين ذراعيه . ذابت الدنيا فى ظله الذى افترشها .

- هى أخبرتنى بنفسها عن التواريخ .. قالت انه من حوالى ثمانية أيام .

- لماذا لا تنسى الأمر كله ؟

- ولكن أن يكون لك ابن ولا تعرف شيئاً عن مصيره ؟

- هل ستبحث عنها فى الشوارع ؟

- سوف أبحث عن ابنى فى أى مكان .

- ألم تقل انك تركتها لهما .

- هل تقصد انه يمكن أن يكون لواحد منا ؟

- أنتم الثلاثة .. هذا احتمال .

- أنت تقول احتمال ؟

أتكأ بيديه على المقعد القطيفة الناعم .. غاص بلا مقاومة بين دفتيه .. واجهته لوحة الإيضاح بعنف ، ثمة تفاصيل ، انحناءات وثنايا .. وأسهم ذات رءوس مدببة .. تخترق البويضة المستكينة فى الرحم المنتفخ بالاحتمالات .

تكور فى مقعده .. لحظة انولاد الحقيقة من دهاليز الرحم ، حين تنكسر صور الأشياء على نن العين . تنعكس على تلافيف المخ .. تتخلق دماً وعظاماً ولحماً نتناً يزكم الأنوف ..

يبحث عنها بينهما .. فى عينى كل واحد منهما .. على الرصيف المقابل لجروبى .. وفى وجه قمر النصف نصف .. المنتشى بسحر المدينة النائمة .. قال الطبيب :

- ثمة احتمال انه لم يحدث على الإطلاق .. كأن تكون كاذبة بشأن التواريخ .. أو أن تكون عاقراً مثلاً ..

- عاقراً ؟ .. عم تتكلم ؟

- أنا أتكلم عن الاحتمالات .

- وأنا أحدثك عن الحقيقة .

***

احتفـــال ..

ضيقت عـينيها ثم قالت ... أنت لم تحـتفل بعيد ميـلادك ولا مرة . كان واضحـاً انها تتكلم باهتـمام، وتريد إثارة انتـباهى للأمر الـذى ربما بدا لها غريبـاً ، ولكننى لم أتوقف عن ملء الخانات البيـضاء فى الصحيـفة فظلت تتكلم ، قالت .. ألا تـرى أن الأمر يستـحق الاهتمام ، لكنك فـاقده .. هل تستطيع أن تقول لى ما اليوم ؟

قفزت عيناى إلى التاريخ المكتوب أعلى الصـحيفة ، قالت ، انها جريدة قديمة .. أنت لم تلحظ الأصفرار ورائحة العطن ؟

كان من عادتى شراء ثلاث نتائج بداية كل عام ، واحدة للحائط وأخرى للجيب وثالثة للمكتب ، وكانت عادتنا الاخـتلاف حول مكان تعليق نتيجة الحائط ، حيث ترى أن مكانها حجرة النوم ، وكنت أرى أن مكانها الطبيعى هو المرحاض ، فـالإنسـان فى المرحاض يستطـيع أن يتأمـل أشياء تبـدو غاية فى الألفـة .

ليس فقط اكـتشفت ان النتيجة لـم تفـض بعد ، بل أيضاً سـبع نتائج لم تفـض ، وأدهشـنى أن لاحظـت أن كل النتـائـج تحـمـل صـورة واحـدة ، لكلـب يرقد بكسل ، ينظر من تحت جفنين مخـدرين ، وقطة صغيرة ، تلعب

بين يديه المبسوطتين ، لكنها .. أكدت لى انها تعرف تاريخ اليوم ، وإن المهم الآن أن أعرف تاريخ مولدى .

هو بلا شك يتخذ له موقعاً بين ملايين التواريخ التى عرفها العالم ، وليس الأمر مزعجاً إلى هذه الدرجة ، إذ لكل إنسان بطاقة هوية ، مدرج بها تاريخ ومكان المولد ، وبعض بيانات أخرى تبدو غير مهمة ، إلا أننى لم أشك لحظة فى أن المسئولين يعرفون أهميتها ، لكن الذى بدا لى مزعجاً على غير توقع ، أننى لم أجد هذه البطاقة ، وهكذا نبهتنى إلى انها فقدت منذ سبع سنوات ، وانى لم أهتم باستخراج واحدة غيرها .

شعور بالقلق بدأ يحتوينى وأنا أكتشف فراغ السنوات السبع ، ومع إصرارها على الاحتفال ، بدا لى ان فكرة الاحتفال ضرورية ، ولهذا فكرت أن الشركة التى أعمل بها تستطيع أن تمدنى بكل المعلومات المفقودة.

كانت الإضاءة الخافتة فى البدروم مبعثاً للرهبة ، وكان ثمة أزيز مزعج يعبق المكان ، خمنت أنه صوت محولات المصابيح ، تئن وتنتحب، أما الرائحة المقبضة التى شممتها هى بلا شك رائحة الملفات المخزونة ، وتعجبت كيف أننى لم ألحظ هذه الرائحة عندما كنت أطالع الجريدة القديمة كما لاحظتها هى .

فى الركن يجلس أحد الموظفين ، وثمة آخران على مقربة منه ، يجلسان على مكتبين اكتظا بالملفات القديمة ، كانا يحدقان فى صمت ، وأظن أن كلا منهما نظر للآخر مندهشاً من وجودى ، أما الذى فى الركن فكان منهمكاً فى مطالعة بعض الأوراق ، ومكتبه كان أكبر نسبياً من الآخرين ، وفى

الخلف نافذة ، واضح أنها لم تفتح منذ زمن طويل ، وثمة فنجان من القهوة الباردة أمامه ، وسيجارة بين أصبعيه ، تبث دخاناً أسود عطناً ، لكن أشد ما يلفت الانتباه ذلك الطربوش الأحمر فوق الرأس ، تقدمت بالطلب الذى كان علىّ أن أكتبه ، وأوضحت فيه رغبتى فى معرفة تاريخ مولدى ، أخذه بتلقائية دون أن ينظر إلىّ ، فتح سجلاً ضخماً ، أطال النظر ، رفع عينيه لأول مرة ناحيتى ... تغيرت ملامحه كأنما فوجئ بوجودى ، ... قال .. أنت متأكد من صحة الاسم ؟

كرزت الاسم ، وأكدت له إنه اسمى ، وإن الإنسان لا يمكن أن يخطئ فى اسمه الذى ينادى به منذ زمن مولده ، ثم إن الإنسان لا يملك اسمه ، اذن أن الاسم للآخرين ، أما الإنسان فهو لا ينادى نفسه .. قاطعنى بإشارة من أصبعيه الممسكين بالسيجارة .. أما ان الاسم غير صحيح ، أو انه لا أحد يعمل هنا بهذا الاسم ، والاحتمال الثالث أن تكون أحلت للتقاعد .

الاحتمال الثالث ؟ كم هو مزعج ، يعنى أنا تجاوزت السن القانونية ؟ وأنا أكبر عمراً مما كنت أظن !

ثلاثة احتمالات ، وعلىّ أن أتأكد أو أختار بينهم ، وفى كل الحالات فإن الخطأ خطئى ، فالتجهم على الوجوه ، والصمت الجاثم يجعلانى أشك فى إمكانية وقوعهم فى الخطأ ، فالرجل لهجته حاسمة . وهم منكبون ليل نهار تحت الضوء الخافت ، كان عقلى يعمل كساعة فقدت سيطرتها على الزمن ، وراحت تلهث بعشوائية ، وهكذا فكرت أن ابتعد عن المكان بسرعة ، فقد امتلأ صدرى بالتراب والعطن ، عند الباب لاحظت مشجباً قديماً ، ربما من طراز تركى قديم ، كان عليه طربوشان .

كثيراً امر على هذا المقهى ، وكنت لا أفكر أبداً فى الجلوس فيه ، لكننى الآن فى حاجة لالتقاط أنفاسى على مقعد ، وكوب شاى دافئ بين يدى ، ولهذا جلست على أول مقعد قابلنى لأفكر فيما يجب أن أفعله ازاء هذه المواقف التى تعقدت وتشابكت ، فالآن ليس علىّ فقط ، البحث عن تاريخ مولدى ، بل البحث أيضاً عن اسمى الصحيح كما هو مكتوب فى شهادة ميلادى ، وربما مكننى هذا من اثبات وظيفتى وتكذيب زعمهم بإحالتى للتقاعد ، ولكم بدا لى مرعباً أن مصيرى معلق بوثيقة مفقودة ، أو اننى عشت عمرى كله باسم رجل آخر .

وهكذا ، فإن الأمر فى غاية الأهمية ، وهو يحتاج بالفعل لمقعد وكوب شاى دافئ ، وأفكر .

النادل يمر أمامى متجاهلاً وجودى تماماً ، جاعلاً اذناً من طين وأخرى من عجين رغم نداءاتى المتكررة ، ولما هممت أن أصرخ غاضباً ، نبهنى جارى أن لا فائدة مما أفعل ، لأن النادل يختار زبائنه بنفسه ، وأن علىّ انتظار دورى مثلى مثل الجميع ، وأى محاولة للاحتجاج على نظام المقهى قد تسقط حقى فى الدور المقرر لى ، أو تحرمنى من كوب الشاى نهائياً ، ثم انهى كلامه فقال ليس معقولاً انك الذى حضرت الآن فقط ، تقضى طلبك مثلى ، أنا الذى أنتظر منذ زمن .

ولما شرحت له كم أنا مضطرب ، وفى حاجة لكوب الشاى ، وحكيت له قصتى مع رجال البدروم ، علق ابتسامة متآكلة على جانب شفتيه وقال اننا جميعاً نقول نفس الحكاية .

ثم أكد لى انهم هنا يعرفون هذه الحيل جيداً ، ولا فائدة وأن علىّ - إن أردت الشاى - انتظار دورى .

كان صوته هامساً ، وكانت عيناه ثابتتين على وجهى كعينى سمكة قرش ميته ، أحسست برهبة ، وانقبض قلبى من صوته الذى يشبه الفحيح وفكرت لو أجرى من هنا ، فقال .. انك تستطيع أن تمشى .. ولكنك تخسر دورك .

وبرغم حزنى على دورى الذى خسرته ، مشيت وأنا لا أعرف أين أذهب ، كان فحيح الرجل فى أذنى ، مختلطاً بصوت المحولات الكهربائية، ورائحة العطن تقتحم أنفى ، وصورة البدروم والطرابيش الثلاثة تملؤنى ، وكان الشارع ضبابياً راكناً للنعاس ، وهى فى البيت تريد أن تحتفل .

فى السيارة كنت مستسلماً لاندفاع الهواء من النافذة ، أملأ رئتى بالأكسجين ، ويتعمق فى نفسى الإحساس بالفرق بين هواء البدروم ، وهواء الطريق الزراعى ، ونظرة السائق تفرش الطريق بحيوية مدهشة ، وهو يضع ذراعيه على نافذه يسراه ، ويردد أغنية من ذلك النوع الذى يناسب موالد الأولياء ، ثم راح يقشر بعض اليوسفندى ويلتهمه ، بينما يطوح بالقشر على طول ذراعه ، فأدهشتنى شراهته .

وأنا أحاول الانشغال به ، يراودنى شعور مبهم بالقلق ، فأنا لم أزر البلد منذ موت أمى ، وبرغم انه لم يأتنى خبر موت أبى إلا أننى كنت أشك فى انه لازال على قيد الحياة . لكننى وجدته تحت الصفصافة العجوز أمام دارنا القديمة ، كانت عيناه فى المجاهى مباشرة ، بسرعة تذكرت الرجل الذى ينتظر دوره على المقهى ، ولما رميت عليه السلام ، وضح انه لم يسمعنى ،

انحنيت وأمسكت يده أقبلهـا طبقاً لعادة قديمة كنت أفعلها صـغيراً ، أمسك بيدى ، قال بصوت متقطع .. من .. ؟ .. يوسف .. ؟ ... هل عدت ؟

وأدهشنى انه نطق بهـذا الاسم ، فلـم يدعنى أحـد به أبـداً ، وتذكـرت رجال البدروم وفكرت انهم ربما كانوا علـى حق فى مسألة اسمى هل يمكن أن يكون اسمى هو يوسف ؟

ما كدت أتـرك يده الجافة تسقط حـتى أحسست بيد تربت على كـتفى، كان رجلاً مهيب الطلعة ، ابتسم لى فى وقار وهو يداعب لحيته البيضاء، ثم قال تأخرت كثيراً ...

علمت أن أبى ذهبت ذاكرته تمامـاً ، وان كل ما يعرف ، انه يجلس تحت الصفصافة فى انتظار ابنه يوسف الذى خرج مع اخوته ولم يعد ، فأحسست بالذنب وأنا أنظر لعينى أبى المبيضـتين وهما ساكنتان ، لكن الرجل المهيب ، هون علىّ ، وطلـب منى أن أكـمل المشـوار للنهـاية ، ثم ربـت على يد أبى وقال .. انه رجل مـبارك ... أما أبى فـمسك بيـد الرجل وقال ... يوسف ؟ ... هل عـدت ؟ بالكاد تحـركت فى عـينى دمـعـة ، رغم حـزنى الشـديد ، أخرجت منديلاً لأمسح عينى ، ولما رفعته عن عينى لم أجد الرجل كأنه نور وانطفأ فجأة .

ظهر خـوفى فى حلقى الذى نشف ، وأحـسست بالدماء تنـسحب باردة من جسدى ، وشعرت كأن كل شئ يحدث بفعل فاعل وكأننى مدفوع بقوة لا أفهـمهـا إلى مصير مـحدد ، ورغـم كل شئ ، هدانى عـقلى لأذهب إلى قابلة القرية ، ربما لديها شئ محدد عنى .

عندما دقـقت بابها انفتح ، فتـحت امرأة رائعة الجمـال ، لم أستطع النظر

فى عينيـها العميـقتين ، ولما قلت لها اننى أريـد أم حياة القابلة ، قـالت انها حياة ابنتها ، وانها قد تجيبنى على طلبى لأن أمها ماتت من زمن بعيد .

- ماتت ؟ .. كنت أريد تاريخ مولدى .

- هل هذا مهم ؟

- إن زوجتى تريد الاحتفال .

- لكنك تأخرت كثيراً .

هى نفس كلمة الرجل المهيب الطلعة ، وغاظنى هذا ، فقلت بحدة :

- تأخرت على ماذا ؟

- إن زوجتك تحتفل الآن .

وقعت فى الحيرة لحظة ، ثم وقع فـى روعى أن زوجتى تكون قد عرفت شيئاً عن مولدى ، ولكنى دهشت ، إذ كـيف علمت المرأة أن زوجتى تحتفل الآن ، وعندما رفعت بصرى اليها مستفسراً ، صرخت ، وظللت أصرخ من بشـاعة الـوجه وغـور العـينين المتـآكلتين ، أصرخ وأجـرى ، ومـررت بأبى المنحـوت فى جذع الصـفصـافة ، وعنـدما عـدت إلى بيتى ، طرقت البـاب بقوة، قالت فى دهشة . من تريد ؟

- من أريد ؟ أريد أن أدخل .

- تدخل أين ؟

- بيتى !!

- من أنت .. ؟

كنت فى غاية الدهشة والحيرة من كلام زوجتى ، ولما قلت لها إننى زوجك وأردت أن أؤكد هذا بذكر الاسم ، لم أجرؤ على ذلك ولكنى قلت .

- إننى زوجك وكفى ..

قالت بهدوء .

- إن زوجى بالداخل يحتفل بعيد ميلاده .

عندما نظرت من فتحة الباب ، لمحته يتحرك ، وسمعت صخب الاحتفال ، زادت حيرتى ، وكدت أسقط مغشياً علىّ ، كنت أحاول أن أفهم ، أن أفكر ، فوجدتنى فى حاجة إلى مقعد وكوب شاى ، فذهبت إلى المقهى ، وجلست ، أنتظر دورى .

***

كارتـــون ..

رأيت الخيط مشدوداً وأنا أحاول اجتيازه ، وأقاوم كتلاً من السحب الرمادية ، تحاول إسقاطى ، هكذا ، حمراء جهنم كما قالوا ، والجنة لم تكن بهذا الخضار عن يمينى ، سواد راكد ، ولزوجة ، الكتل الرمادية ثقيلة وخانقة ، وصراخى ينسحق فى الهشاشة الاسفنجية .

رعب مجهول ذلك الذى يختبئ فى الرمادية ، ولكنى كنت أعرف أنه قادم ، وأنه سيصدمنى بعنف ، وينجح فى اسقاطى ، ولن يمنحنى فرصة الاختيار بين سواد لزج ، وأحمر متأجج ، وقبيل خطوات من النهاية ، داهمنى صوته ، مزلزلاً للفراغ ، وممتداً ، وأنا لا أعرف فى أى الكتل الرمادية يختبئ ، فاستغرق فى رعبى ، وتواصل اللزوجة والهشاشة ، سحق صراخى .

قلت ... ناولينى شربة ماء ، فقالت ... ما لعينيك جحوظاً يرعبنى؟

تقول ... انها لم تنم ، وتقول .. كنت أفكر فى الموضوع ، وسمعت صراخك ، ولكنى كنت أفكر .

قلت ... من هو ما سنجر ؟

قالت .. أخوك سيستأثر بكل شئ، وزوجة أبيك عجوز لا حيلة لها .

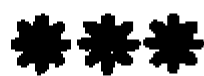
قلت ... من هو ما سنجر ؟

قالت ... يضع يده على الأرض فعلاً ، ويملك كل المستندات ، أما صورة الحكم الابتدائى ... بلها واشرب ميتها .

وكادت يدى تسقط زجاجة المضاد الحيوى وأنا أطفئ الأباچورة ، ومن جديد أحاول النوم ، وهى كعادتها لا تنام حتى تضع يدها بين فخدى ، ولكن أعطيتها ظهرى ، فوضعتها كيفما اتفق .

المحامى ينصحنى أن أشارك أخى اللعبة وإلا خسرت كل شئ ، وزوجتى لم تعد تطيق الخسارة ، فهى لا تنام منذ خسرنا الدولارات التى حاولنا توظيفها ، ثم أننا استنفدنا فرص الإعارة ، وأنا فى الصباح ، سوف أزج بنفسى فى أتوبيس معبق برائحة النوم ، والبنزين ، وتبغ المارلبورو يشكل حروف الكلام فوق شفاة الفواعلية الذاهبين لمدينة السلام، ولكنى أغمض عينى عن كل شئ من حولى ، وأخشى أن أنام فتفوتنى المحطة ، ورأسى الثقيل ينغرس فى هشاشة اسفنج المخدة ، والخيط نفسه صار مطاطياً كغشاء بكارة مراوغ، فزادت احتمالات سقوطى، والارتخاء المخيف جعل حفظ التوازن مستحيلاً أمام ضربات الكتل الرمادية ، وكنت أعرف انه مختبئ فى واحدة منها ، وانه سيظهر فجأة ، بجسمه الصلب الممتد كناطحة سحاب، وأعضائه الميكانيكية ، وعيناه مشعتان بالليزر البارد ، يصطاد الصواريخ والطائرات بقبضته الفولاذية ، ويطأ الأرض فتهتز ولا يبالى بدبدبات الأشرار التى تنسحق تحت قدميه ، وحين يطلق صيحته

المدوية ... ما سنجر ... تظهر المذيعة البلاستيكية وتقول ... إن كل الأطفال يحبون أفلام الكارتون ، وإن ماسنجر العملاق لا يستخدم قوته إلا لمعاقبة الأشرار ، وتؤكد الشائعات التى تدور حول مضاجعة سوبر مان لزوجتى فى الفضاء الخارجى ، وزوجتى تقول إنه مجرد حلم ، وإنه فقط حملها بين ذراعيه وطار بها حول الشمس ، لكن وكالات الأنباء تؤكد الخبر ، والحقيقة ان زوجتى لم تعد تحلم ، لأنها لا تنام حتى تضع يدها على شئ ، وأخى يضع يده على الأرض ، وأنا أعطيها ظهرى فوضعتها كيفما اتفق ، ولكننى لا أنام وهذه اليد داخلى ، ولما حاولت دفعها ، كانت صلبة وباردة ، وممتدة بطول ناطحة سحاب .



رتـــــوش

١ - خريـــــــر

٢ - البركـــــة

٣ - انتظـــــار

٤ - لون آخر للعبور

٥ - امرأتـــــان

٦ - حـــــــر

٧ - تقليب النـــار

٨ - الشاروقـــة

٩ - قصـــــة

خـريـــر ..

كان يتقدمها على الدرج المعتم ، ممسكاً بشمـعة غافية الضوء ، نبهها إلى صـوت الحـذاء ذى الكعب المعـدنى العـالى ، أنثنت تخلصـه فى صـمت، انسدل شعرها برفق ، همست ..

- هم نائمون ؟

فـتح البـاب بحرص ، انـسابا فى الـداخل برفق ، بنفس الحـرص انغلق الباب ، على المـنضدة ثبت الشمـعة فى إناء بلورى صـغيـر ، تماوج ظلاهما على الأشياء ، انسيابى ، شاحب ، سمعته يقول بصوت مرتعش .

- الجو بارد ...

- نعم ... بارد

وقفت واجفة ، تهرب نظراتها عبر زجاج النافذة المغلق ، ثمة أضواء فى الخارج ، تخـبو وتزدهر فى صـمـت ، طوقهـا من الخلف ، انتفـضت ، لمس جيدها ، أنفـاسه تتهدج خلف أذنها ، كتـمت صوتاً مطوطاً ، أحس بثنيات جسـمـها ، ملمـسهـا الحريرى ينزلق من بـين يديـه ، أسدلت السـتـار على النافـذة ، قـال :

- خائفة ؟

- لا أدرى ...

أمسك بكتفيها فتراخت على حرف المنضدة ، تضاخم ظل واحد بلا معالم ، انزلقت المنضدة ، أحدثت تزييقاً خفيفاً ، تقلص حرير جسمها ، قالت .

- خائفة ... نعم .

ضمها بقوة . مسد شعرها بحنان ، قال :

- ألا تريدين ...؟

صمتت ، انزلقت كفاه إلى لين خصرها ، مالت رأسها على كتفه ، شمت تلك الرائحة ، وسمعت وجيب قلبه ... همست ..

- خائف ... ؟

- قليلاً ...

تعلقت برقبته ، همست فى أذنه ،

- لِمَ لا تطفئ الشمعة ؟

***

البركـــــة ..

ربما بدا وجهى ضبابيـاً من وراء الزجاج ، وأنا أتأمل الشارع الغارق فى المغيب وأرقب حركـة الأشياء الشتـائية ، وولدين يلقيان بالحجارة فى بركة الماء الراكد وسط الشارع .

عندما فكرت فى دفء السرير والمسلسل الأمريكى رأيتها . من الشارع الجانبى ظهـرت مقدمتـها . كانت الإشارات الضـوئية تلمع على جانبـيها ، وهى تتماوج لتدخل شارعنا ثم توقفت فجأة .

ربما مرت دقيقـة قبل أن ينفتح الباب الخلفى ، مدت ساقـيها ثم انزلقت بحركة سريعة للخارج ، صفقت الباب بقوة ، وراحت تعدل معطفها الووتر بروف وتلملم شعرها الأسود اللامع ، ورأيتها تلقى نظرة ممطوطة على شئ داخل السيارة .

ظهر رأسـه من الجانب الآخـر من السيـارة ، وبانت يداه بوضـوح وهما تسحبـان حقيبة ضـخمة من فوق الشبكة ، ورأيتـه يلقى بهـا على الرصيف ثم يفـتح باب السيارة وهـو يشيـر إلى بركـة الطين التى تتوسط الشـارع ، ويختفى داخـل السيارة ويقفـل البـاب بقـوة ورأيتها تتبـعه بحركة عصـبيـة

وملامحها تتشكل بلغة غاضبة ...ولما كان منشغلاً فى رفع الزجاج الخلفى ، بصقت .

استدارت السيارة ببطء ، ثم انطلقت وهى تنثر رذاذاً طينياً على جانبى الطريق ، وظلت هى واقفة ، كانت تنظر للشارع وفى وجهها ملامح حيرة ، وربما التمعت عيناها بالدموع ، لكننى لمحت صدرها ينتفض من خلال المعطف المفتوح وتحت البلوزة الصوف البيضاء ، ورأيت يدها تمسح تحت عينيها ورأيتها تحاول رفع الحقيبة الضخمة بلا جدوى .

ربما مرت خمس دقائق أو ست ... وأنا أتأملها من خلف الزجاج ، هى كانت سمراء وربما لم تكن جميلة لكننى ما رأيت عوداً فارعاً كهذا .

كان التليفزيون مازال مفتوحاً والسرير دافئاً ، وأنا ارتدى قطعة من ملابسى بسرعة ، أنظر فأراها ، وألاحظ أن الضباب تكاثف جداً على الزجاج ، ارتدى قطعة أخرى ، أنظر فأراها ، يدفعنى وجودها لأرتدى ثالثة ، أنظر فأراها ، أدس قدمى فى الحذاء وأنظر فأراها ، أصفف شعرى فى المرآه ، أنظر فأرى السيارة مرة أخرى .

لما كان وجهى مازال ضبابياً رأيتهما ، ربما كانا يتصايحان ، ربما يتشاتمان، لكنه كان يشدها بقوة ، وكانت تدفعه بعنف ورأيت مارة قليلين يحدقون مثلى ويمضون بوجوه ضبابية .

ربما مرت ربع ساعة ، عندما رفع الحقيبة الضخمة والقى بها فوق الشبكة وانزلق داخل السيارة ، ورأيتها تعدل معطفها وتلملم شعرها وتفتح الباب

وتميل للداخل بجـواره ... ورأيت السيارة تسـتدير وتدخل الشـارع الجانبى بهدوء ، والإشارات الخلفية حمراء ولامعة ، ولمحت لفافة من القماش على المقعد الخلفى ، وأظن انها كانت تتحرك .

***

انتظـــــار ..

فى حالات الانتظار كنت أفـضل العبور للجانب الآخـر ، فأقف بجوار سـور الجامـعـة الأمريـكية ، وأتلاشى زخـات القلق التى تـظلل المنتظرين ، ومحاولاتهم للصمود أمام هبّات التراب التى تحملها زعابيب أمشير ، وفيما كانوا يتلهون بالتقليب فى فرش المجـلات والجرائد ، كنت أتلهى بمتابعتهم ، وبائع الجرائد مبتور الساقين الذى يزحف على مقعدته ، ويمر بين سيقانهم ، يعـدل مـا أفسـدته أياديهم القلـقة ، ويضـيق بهم فـينهـرهم ، فـينظرون فى ساعاتـهم ، ويتبادلون مواقـعهم ، أو يتراجعـون بضع خطوات فى اتجاهات مختلفة ، ولكنهم لا يبرحون المساحة الصـغيرة على ناصية استرا ، وعيونهم شاخصة فى اتساع ميدان التحرير ، وعلى فترات متفاوتة ، كان وجه الواحد منهم يتـشكل براحة مـباغـتـة ، وينشط فى اتجاه الآتى ، فـيمـا كان آخـرون يفـــدون ، ويملئون مساحة الانتظار .

***

لون آخر للعبور ..

لفحات من هواء أمشير المترب تكسو الشوارع برمادية كالحة ، ومارة قليلون فى انتظار الضوء الأخضر للعبور ، تستقطب نظراتهم حركات الشاب العصبية ، كان يحاول إمساك البنت من ذراعها ، وكانت تدفعه بعنف ، وتتخلص يمناها منه ، فيما كانت تحتضن بيسراها بعض الكتب .

بدا انه يحاول اقناعها بشئ ما ، فيقف قبالتها ، ويعبر بيديه فيضم الكفين ، أو يبسطهما أو يحركهما فى الهواء ، وهى تتفادى النظر إليه ، وتتشاغل بلملمة الشعر الذى بعثره الهواء ليدارى الغضب فى العينين .

- لم أكن أستطيع ... لِمَ لا تصدقين ؟

يفح صوتها بأنين خافت ، وينزوى فى دوامات التراب .

- أنت لم تتحرك ... لم تفعل شيئاً ...

ويحاول أن يشرح .... بنفس تعبيراته القديمة ، والهواء يغير على كل شئ ، ويناور حول ذيل الفستان المطرز بزهور بنفسجية ، يكشف عن سيجاف من الدانتيل الأبيض ، فتتورد سمرة الوجه بخجل خمرى و ...

والغضب لم يزل ... ، تلملم ذيل الفستان على مخمل الفخذين فتتحفز عيون فى وجوه منهومة ... تتبادل ابتسامات صدفية تضوى على شفاه تتهامس ... ياعينى على الرجال . تنتبه حواس الشاب للمكان ... والناس من حوله ، يردد كلمات ما عن الرجولة ... والكرامة ...، ويلوح بسبابته فى سمرة الوجه ، فينزلق تعبير ساخر على ورد الشفتين ، وتستهين بكل ألوان الغضب الأخرى ... فتغامر بعبور الضوء الأخضر فيما كانت السيارة البيضاء تبرق على أسفلت الشارع ، وتنطلق منها كلاكسات الإنذار ، يتراجع الشاب للخلف بخطوات ، والبنت تقطع غمغمات التردد بخطوات سريعة ... للأمام ، يختلس فيها الهواء فرصة الكشف عما هو أكثر من الدانتيل ، وارتباكة ما تبعثر الكتب من فوق الصدر الدافق برفرفات عصفور فزع ، يفر الهواء الصفحات ويسحلها بقسوة على الأرض ، فيرفع السائق يده من النافذة معتذراً ، وفيما تشكلت ملامح الشاب بحيادية شرطى مرور، يتقدم آخر بين تتابع السيارات الأخر ، ويلملم ما تبعثر فى هبات الريح .... والتراب ، فيمنح البنت فرصة لاحتواء ذيل الفستان ، فلا يبين الدانتيل .... ولا شئ ، غير ابتسامة ونظرة منغومة بلون آخر .

***

امرأتـــــان ..

كانت تعبر الشارع ، تجرى فى قفزات رشيقة كغزال ، وكعب الحذاء يدق الأسفلت دقات تتموسق مع حركة الردفين ، سريعة كانت ... وشعرها الأسود مسترسل كقصيدة داكنة ، وبقفزة واحدة ... كانت فوق الرصيف ، فارتج نهداها ، وتقافزت بينهما حبات العقد الملون ، وتطوحت الحقيبة ذات اليد الطولى وصدمت بعنف كتف البنت الصغيرة ، الواقفة على الرصيف بجوارى ، تستعطف نهر السيارات المتدفق كشيطاين سكرى.

كانت دقيقة ، وثوبها القصير يكشف عن ساقين ذهبيتين كالبوص ... تحسست كتفها العارى النحيل ، وكان ثمة غضب صغير يشكل ملامحها وهى تدلك مكان الخبطة ، وحين استقرت نظراتها على الغزال الذى مرق بجوارنا كالضوء ، انكسر الغضب فى عينيها ، ولانت ملامحها ، فرأيت نظرة مسحوبة بحلم برئ ، ودهشة صغيرة تحط على تقاطيع وجهها المنمنم ، ولما رأتنى أنظر إليها ابتسمت ، فبان لؤلؤ صغير بين إحمرار شاحب لزهرة بكر ، وتألقت غمازتان بلون الضحك تحت الخدين ، ... وتأملت شعرها الأصفر المغبر ... الهائش كخواتم ذهبية ، وعينيها ذات الفضاء الأزرق الرائق ، وهما تغادرانى بسرعة ، وتحطان على الغزال الذى ابتعد

قليـلاً ، فبان عمق الساقين تحت الجوب المفتوح من الخلف ، كانتا تلمعان ، وتتداخل عليهما ظلال مع حركة لينة وسريعة ، وفيما كانت البنت الصغيرة تلم حلمها ، كنت اخترق المسافات الزمنيـة الضيقة بين ومضـات الشياطين السكرى تلك ، ومن الرصـيف المقابل ، ألقيت نـظرة أخيرة قـبل أن أغوص فى نفق المتـرو ، كـانت تحدق فى الفــراغ الداكن أسفل السـيارة المركـونـة ذات الغطاء الأخـضر الكالح ، وعلى شفـتيـهــا نفــس الابتسـامــة التـى منحـتهـا لى ، كـانت تمنحـهـا مغـمـورة بفرح طفـولى هذه المرة لشئ مـا ، وبصـعـوبة رأيتـها ... كـانت صـغـيـرة وبيـضـاء ، وتحــاول بمخـالبـهــا وأسنانهـا عضعضة شريـــط مـدلى مــن غطاء السيارة .

***

حــــــر ..

كـانوا يقلبون مـجلاتـهم وجرائدهم القـديمة ، ويقطعـون ملل الانتظار بنظرات قلقة ، يطلقونها ناحية المرآة ، والكرسى الدوار ، وبسرعة يسحبونها ويلقـونهـا فى الورق القـديم ، والذى دخل منذ قليل اختـار مكاناً قـرب المروحة، وراح ينفخ زفير الخارج الملتـهب ، ويملأ رئتيه بهواء الداخل المفعم برائحة الكولونيا المغشوشة ويوزع نظـرات مختلفة نوعـاً ، لكنه بدا كما لو كان هنا من قبل .

وفى الجـانب الآخر بدا الحـلاق منهمكاً فى نزع الشـعر من وجـه الملقى رأسه على مسـند الكرسى ، كان مغمض العـينين ، محمر البـشرة ، وكانت الفتلة تنقـطع أحياناً ، فـتعالجـها أصابع الحـلاق فى آلية ، فيـما يترك عـينيه تتدحرجان على وجه الزبائـن المعكوسة على سطح المرآة الصقيل ، وتتلكآن على الذى دخل لتوه وتشاغل بالبحث عن مجلة تصلح لتصفحها بين ركام المجلات القديمة ، المحطوطة فوق منضدة صغيرة من النيكل الذى تفشى فيه الصدأ ، ربما بسبب ركنتها بجوار الحوض الذى كان يرشح وتتساقط قطراته فى صـفيـحـة ... هى أيضـاً صدئة ، وثمـة رائحـة عطنة تهب كلمـا دارت المروحة دورة كاملة لتزيح رائحة الكولونيا.

قطع الصمت وقال ... حر ... الدنيا حر لم يرد أحد ، فيما أرسلت النظرات وانسحبت ، فعاد يقول ... مع اننا فى أول الصيف .

الذى بجواره ، اكتفى بابتسامة ، ونظرة أطول نوعاً ، ولكنه عاد يسحبها ببطء ، فيتمدد الصمت من جديد ويسمع أزير المروحة الخافت ، وتتابع القطرات المتساقطة فى الصفيحة التى امتلأت حتى نصفها ، وحفيف الورق يتقلب بين الأصابع المبلولة ، وحين فاحت رائحة الكولونيا بكثافة قال صوت ..

- نعيماً .

دار الكرسى نصف دورة ، فأصبح الوجه فى مواجهة الجالسين ، وفيما كانت عيونهم تتطلع اليه باهتمام تجاهلهم ، وانشغل بدس يده فى جيبه ، عاد يعطيهم ظهره ، فاضطر الصبى للدوران حوله وهو يلاحق القفا - الذى بدا أيضاً محمراً - بفرشاه ناعمة ، وتوقف حين تجاهله الرجل الذى دس قبضته فى كف الحلاق واندفع ناحية الباب ، وهناك توقف لحظة ، عاد ينظر للداخل ... وبدا وجهه أكثر احمراراً ولمعاناً فى ضوء الشمس ، تراجع خطوة وقال :

- ياه ... فعلاً ... الدنيا حر .

***

تقليب النــــار ..

فى الصباح ، كنا نوقظك فى الصباح ، وأنت لا تفرك عينيك أو تتمطى، فيظن الآخرون إنك صاح ، وعندما يدار مؤشر الراديو ، لابد أنك تفكر فى وضع الوسائد فوق رأسك ، وكنت تعرف أن الوسائد مليئة بالثقوب ، وكنت تسمع ، كنت تسمع .

يمكنك أن تمد يديك فتخرسه ينخرس ، لكنك تركت الموجات تنساب وأنت غارق فى حلمك الأبدى ، تدفع كتل الهواء الرمادية فتحتويك ، تبتلعك .

«يا أيها المدثر ، قم فانذر» ان السوق قد امتلأ ، وانهم قد سبقوك فى الفجر فباعوا واشتروا ، تقول إننى كبرت ، ولم أعد أقوى على اعتلاء ظهور الخيل ، وتقول فيما كنت تقول ، إن الحال لم تعد هى الحال ... وهكذاوتتجرع كوز الشاىْ الأسود وتفعل (الاصطباحة) الهباب ، وتدير المؤشر ولا تتفاعل .

يا أيها الرجل المحدب ظهره . أتلحظ؟ ان صدر ابنتك أينعت ثماره . وأن الصبيان فى المقاهى وعواجيز البوظة ، بالعيون والأيدى يتحسسون

طراوة النهدين ، ويستحلبون شفاههم ، فاهجر الرجس ، وطهر الثياب ، واحفظ االنهدين من عيون البصاصين .

بين الأصابع الراجفة يلوح سكين ، يدس بين الحين والحين فى قلب الجمرات التى تطقطق وتميز ، وتقلبها فتقذف من سعير نثارها ، تحدق فى الأحمر المتأجج ، تقاوم صهد الاكتواء . ورمش العين الجافة وبخار الشاى المغلى ينسال فوق برودة الجدران ... يقطر فوق السرج المعلق ، والشكيمة الصدئة ، والمسمار المدقوق فى حائط الطين الرخو ، لا يقوى على الاحتمال .

مالك يا رجل .. فيمَ تفكر ؟ أنت تحدق فى النصل الأحمر . هذا فعل النار فى الصلب . وأنت تدفع بعزمك المتفانى فى ارتعاش اليد ، وتمسح عضات السنين من فوق الجبين ، أعرف أن النصل قادر على البتر. فلا تدهشك قدرة الحديد على إهدار الدم . ولا يدهشك أن الدم يتجلط خارج الشرايين ...



الشـاروقـــــة ..

رفعت البطانية السوداء الكالحة وقالت ...

اللهم صلى على حضرة النبى .

واربت الباب ، وبصت برأسها داخل المندرة الصغيرة ونادت .. بنت يا خديجة .. اصحى يا بنت .. العجين خمر .

صعـدت السلـم الخشبى ، وغسلت وجهها بهـواء السطح البـارد عندما ظهـرت خديجـة عند البـاب ملفوفـة فى حـرام صـوف قديـم ، ونظـرت إلى الشـاروقة وسـمعـت النـار تزغـرد فى حـلقهـا وهى تطـس وجـهـهـا بكـوز المـاء .

أذَّن الشيخ عبد اللاه من فوق مئذنة الجـامع الكبير ... فتحرك رجب فى سريره ... وحـمد الله انـه لازال على قيد الحـياة ... وأذَّنت ديوك ونـهقت حمـير ونعر جـاموس ... واحتـضن حسن سعـاد خلف المطحن القديم ... وداعب نهـديهـا الصـغيـرتين ... وعندمـا استيـقظ عـرف انه وجب عليـه الاستحمام .

انطلقت صـرخة فى وسط الدار .. فـخرج حسن ونزل رجـب من فوق

السرير ورفع «علي» اللحاف وأصغى ... وأطلت الأم من فوق الدرابزين وفي يدها المسقاة ... وكانت خديجة تبحلق في الماجور بذعر ...

فأر .. فأر سقط في الماجور .. رأيته يغوص حتى رأسه كان يبص لي حتى غطس في القاع .

ضربت الأم على صدرها ، وهمّ رجب بالتقيؤ ، قال وهو يضغط بكلوة يده على بطنه :

- لازم العجين يندلق .. الفأر نجس .

قالت الأم وهي تتجنب النظر في عينيه ...

- ولا حفنة طحين في الدار ... ولا رغيف عيش في السحارة .

كان رجب يتحرك نحو الماجور في إصرار ، وهو يردد نجس يا أولاد نجس . وكانت خديجة تتكوم فوق حمل الحطب الهائش في صمت ، فقال حسن بصوت واطئ :

- نخرج الفأر ... اذا كان ميتاً دلقناه .. ، واذا كان فيه النفس خبزناه .. الميتة هي النجس .

وقال رجب بصوت جهوري كبقرة عشر ..

- نشحذ ولا نخالف شرع ربنا .. هذا حرام .

قال علي وهو يسند ظهره على باب المندرة المطلاة حديثاً ..

- حرام حلال ..ميت صاح .. نخبز ونأكل .. الجوع هو الكافر ..

زام رجب وتحفز ، على ولطمت الأم خدها ، وطلبت من الله الستر عندما همّ رجب بدلق العجين .. وكانت النار ترعى فى الهشيم وتبصق دخاناً يعمى العيون .. فامتدت قبضة ، وترنح جسد ، وكان العجين على الأرض يفرش دائرة بيضاء تتسع وترق كلما اخترقتها بصات العيون المنهمة بالبحث عن بقعة سوداء لم تظهر .

- أين الفأر ؟

ابتسمت خديجة وفركت عينيها المكسورتين بالنعاس ، فضحكوا حتى انهم ترنحوا وداسوا فى العجين وكانت الأم تصب الماء فى حلق الشاروقة .. وتمسح دموعاً ظنوا انها بسبب الدخان .

***

قصـــــة ..

حين سقـطت الذبابة التى حيـرت صديقى القـاص ، طويت الصفـحة ، وفى ذلك الوقت اندفع الشاب البدين ذو الوجه الطفولى ، والعرق الفياض على جبهـته ، كان أول ما فعلـه ان التقـط انفاسـه ، وتلفت حوله بقلــق ..

تمنيت لو أن العـنكبـــوت لم يـصطد الذبـابة ، أو ان الطـفل فـــعص العنكبوت.

زعق المحصل فى المرأة التى تفترش الأرض ، تمسك القفص والحمامات الحبيسة ، فنـظرت السـمينة المصبوغة الوجه للقفص باشـمئزاز ، وتدحرجت عينا الصعيدى على الصدر السمين بعنف .

تململت البنت ذات الـحجاب ، فتـحرك الشاب ذو الملابس الـعسكرية ، بحلق فى النافذة وصفر ، رشقتهما النظرات السمينة وابتسم المحصل .

مد الوجـه الطفولى كفـه إلي الكف الممسك بالسيـجارة ودفعه بعـيداً ، فـدفع الآخـر بزفـره دخانيـة ، حـدقت الجـالسـة بجـوار النافـذة ، تشكلت ملامحها بغضب ، فتحت النافذة واحتوت الصغير فى صدرها .

تحـركت ذات الحجـاب نحـو ذى الوجـــه الطفـولى وبقى العـسكـرى فى مكانـه .

أفاق البرد العجوز النائم ، أغلق النافذة بآلية وعاود النوم ، دفع المحصل الصعيدى للداخل ، وضرب بحاملة التذاكر على العامود المعدنى ، فصرخ الطفل وهو على صدر أمه .

ضربت صاحبة الحمام على ساق ذى السيجارة فتحرك بآلية فى اتجاه الطفولى السحنة .

تذكرت أن صديقى أنجب حديثاً ، ففهمت توجسه لطغيان المستقبل ، ارتاح فأسقط الذبابة فى قصته ، تهاوت السمينة على قفص الحمام حين توقف الأوتوبيس فجأة ، فصرخت صاحبته من بيت السيقان ، عادت المحجبة لمكانها أمام العسكرى ، وانغرست السيجارة فى الوجه الطفولى، وارتطم الوجه العجوز الناعس بظهر المقعد .

وضع العسكرى يده فى جيب سرواله والتصق بذات الحجاب وعاد يصفر .

تحسست السمينة فستانها اللامع ورمت ابتسامة للصعيدى .

تحرك ذو الوجه الطفولى لأول العربة ، ربما سينزل ؟

هل فكر صديقى بمثل طريقتى ؟ .. من يفهم الأدباء ؟

قلبت المرأة الحمامات واطمأنت لمتانة القفص .

التصقت البطن المحجبة بكتف العجوز المطرق كحمار وديع . نظرت الجالسة بجوار النافذة للعجوز بنفس ملامحها القديمة ، أعادت فتح النافذة .

حـدق الصـعـيـدى فى الملصـقـات الـتى فـوق رأس المحـصل ، الكف الفسفورى والمرأة العارية الممتطية أسداً .

انسال السروال الكاكى على التنورة البنية الطويلة ، قذف الآخر بالعقب المشتعل من النافذة .

زعق واحد فى أول الأوتوبيس ..

- محفظة من دى ... ؟

تسابقت كل العيون إلى اليـد المعلقة فى الهواء ، القابضـة على لا شئ ، قهقه الذى زعق .. لم أره .. فعادت العيون لمحاجرها صاغرة .

ضايقتنى فكرة الذبابة التى عـاثت على وجه الأب النائم . وتعلق الطفل بلعبته ، وغاظنى انتصار العنـكبوت وقوة إرادته ، فتحت الكتاب، وشرعت فى قراءة القصة التالية ، كـان اسمها الوان ، وكانت تحكى عن رجل قرر أن يزرع الصحراء .

***

الفهـــرس

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوولوس ترجمة د.على فهمى خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الضميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني

قصص قصيرة ..

مطربة الغروب	جمال الغيطاني
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد تمتم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فرد حمام	يوسف فاخوري
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الشاعر والحرامى	عزت الحريري
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البياتي وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولي
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
منيـــا تنادينـــا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبري السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدي رياض

عطر النغم الأخضر	عمر غراب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد
في مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد
إذهب قبل أن أبكي	د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د. أحمد صدقي الدجاني
اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبد الحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية	د. علي فهمي خشيم
رحلة الكلمات	د. علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي	د. علي فهمي خشيم
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
هاجس الكتابة	د. أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د. أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د. أحمد إبراهيم الفقيه
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدي إبراهيم
البعد الغائب : نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
أعلام من الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د. أحمد الصاوي
رمضان .. زمان	د. أحمد الصاوي
القصص الشعبي في مصر	إعداد خيري عبد الجواد
إغاثة الأمة في كشف الغمة	
الفاشوش في حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

فنون ..

ماهي السينما	صلاح أبو سيف
قضايا المونتاج المعاصر	د. عفت عبد العزيز
الصوت والضوضاء	د. مصطفى عبد المطلب

بالإضافة إلى :

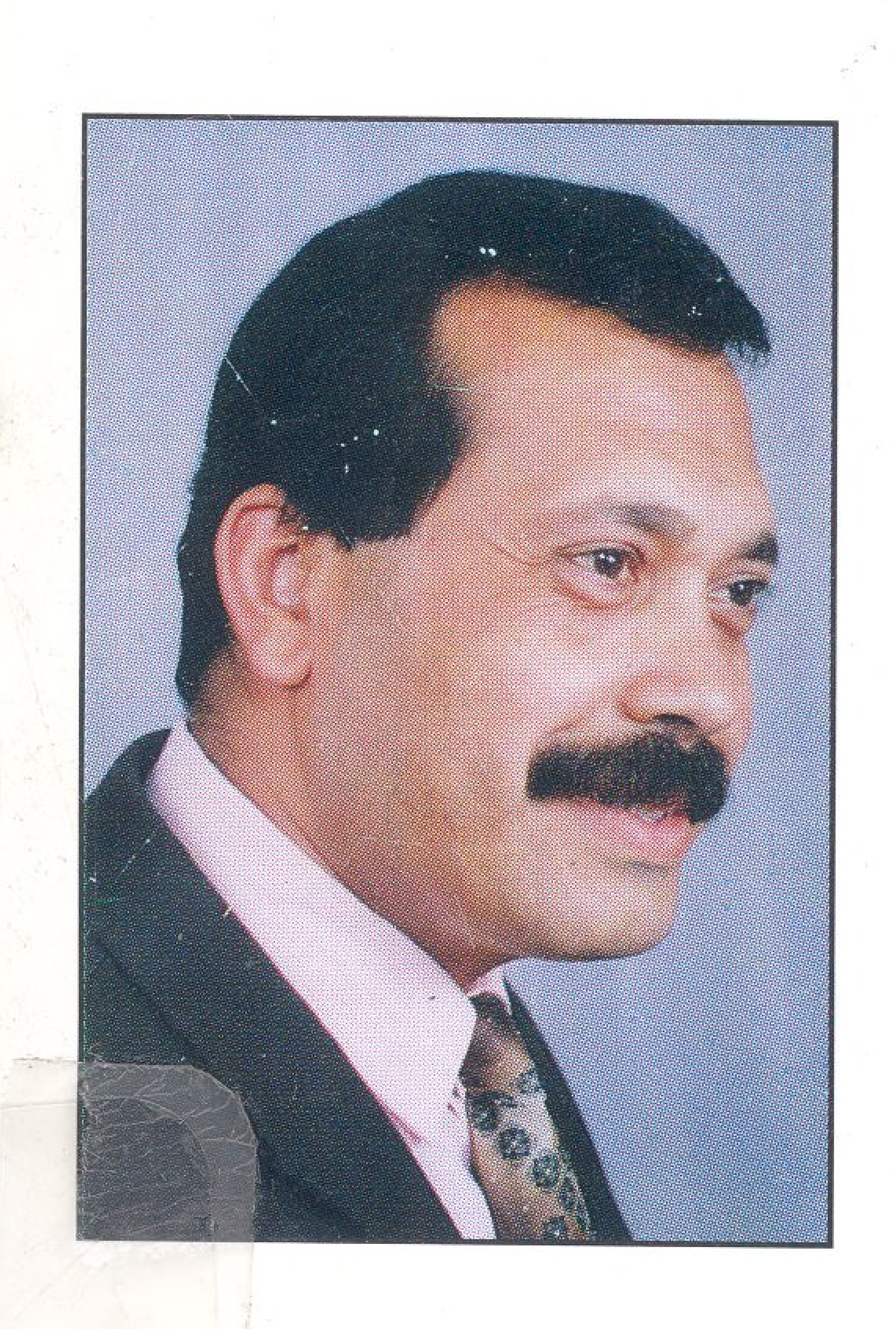
كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

أيام هند

هذه النصوص لها سمات عديد منها أنها تتسع باتساع الموضوعات والشخصيات التى تتناولها، ولاتزعم أن أى منها يمتلك الحقيقة على نحو ما ، ولكن تجاور كل الشخصيات والعلاقات والتفاصيل تساهم فى تقديم رؤية سيد الوكيل على نحو ما عبرعنه (ألتو سير) حين بين أن الحقيقة هى عبارة عن مرايا متكسرة وتقوم الذات المبدعة بجمعها .

د. رمضان بسطاويسى



نحن أمام خطاب قصصى يعتمد على الجملة البسيطة ،يستعيد وجوها غابرة ولحظات منفلتة، يستوقفها ويستحضرها ويقدمهاحية بسيطة . يجتهد لكى يجعلنا نغفل عن خلقه للغة وللعالم ، فيخدعنا ببساطة الجملة وظهورها العامى فى قلب الفصيح، ويفضى هذا الخطاب برسالة تعلن أن حياتنا مزيج من الموت والجنس والنسيان والتذكر .

د. مجدى أحمد توفيق

